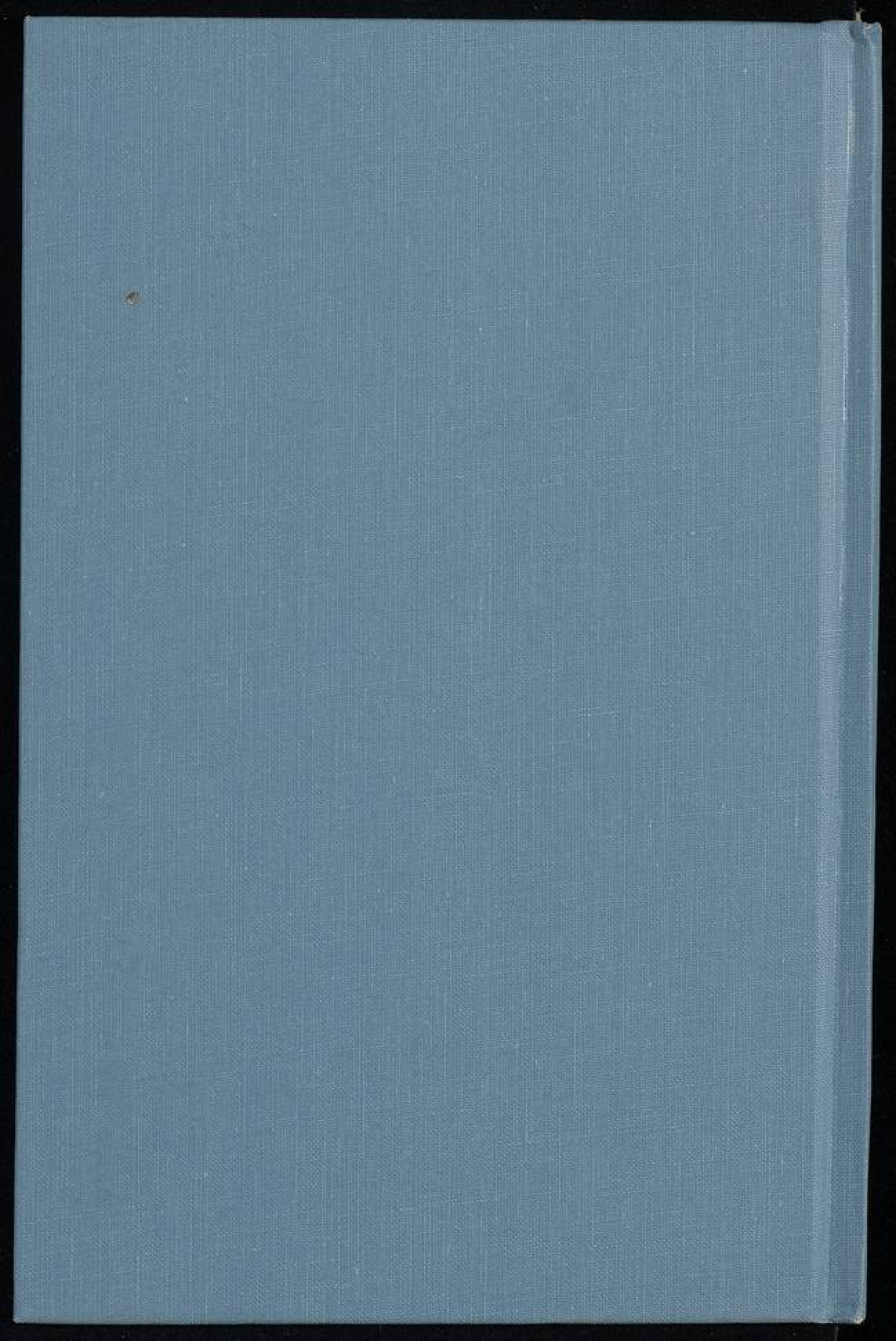
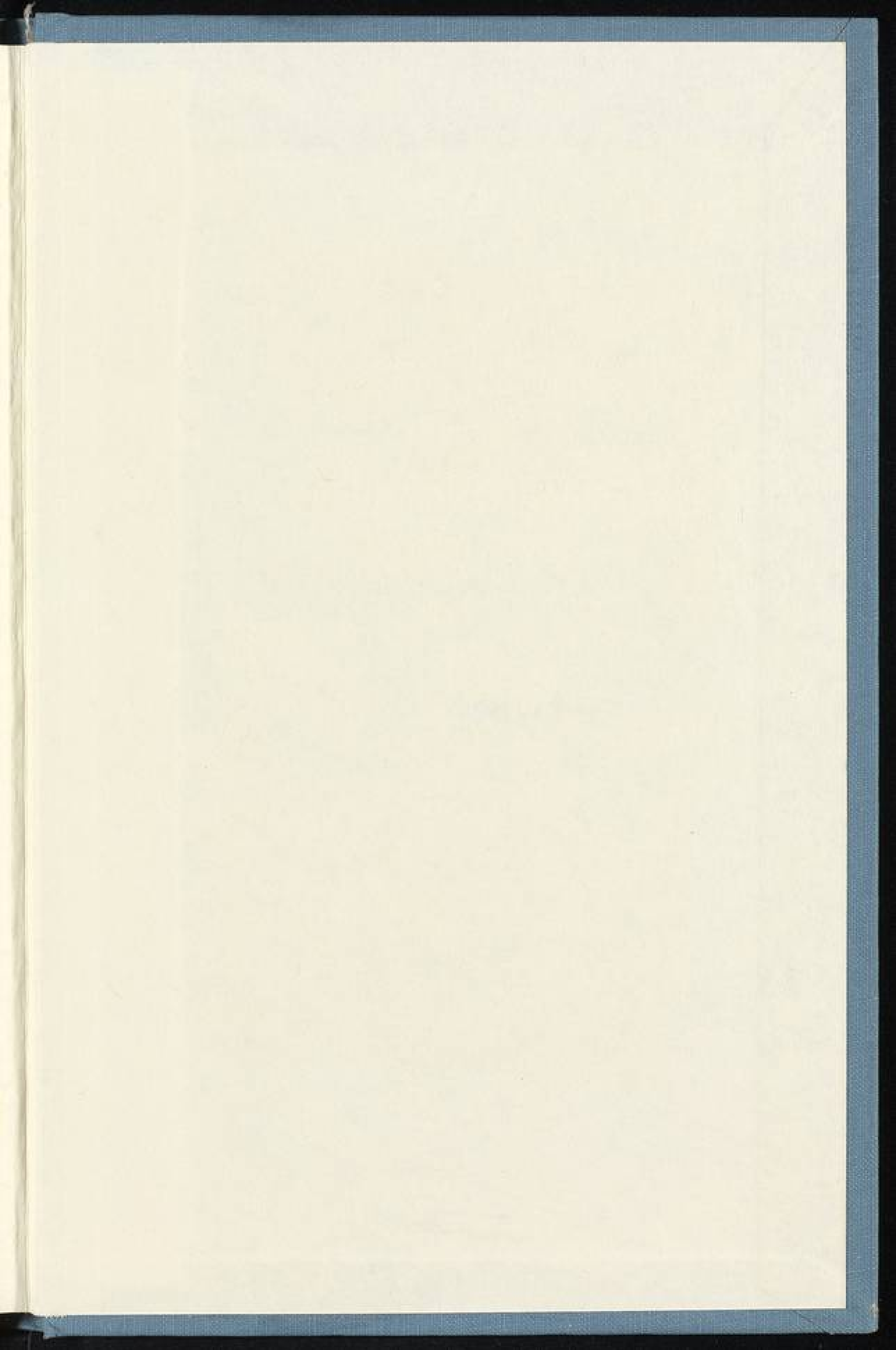
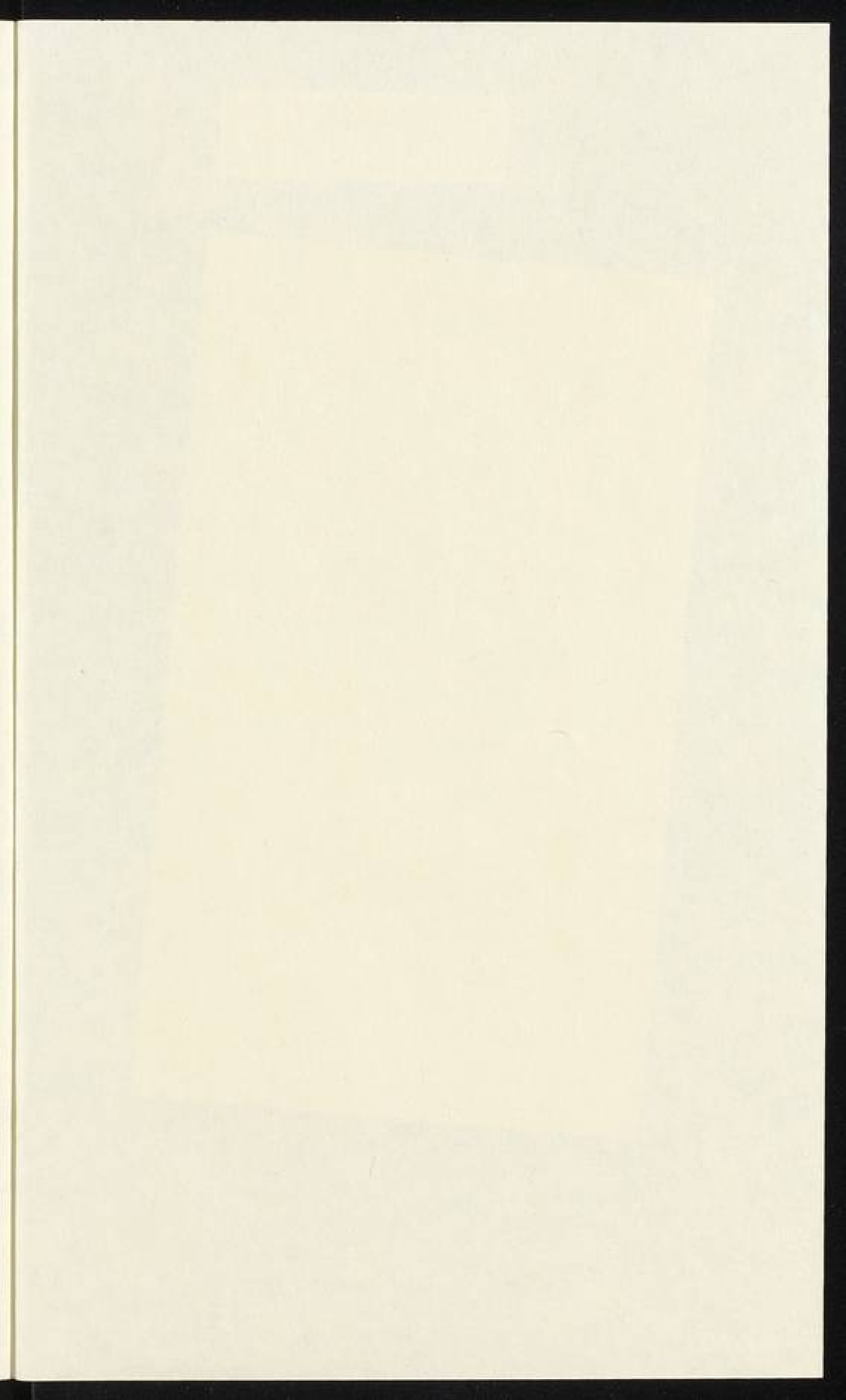
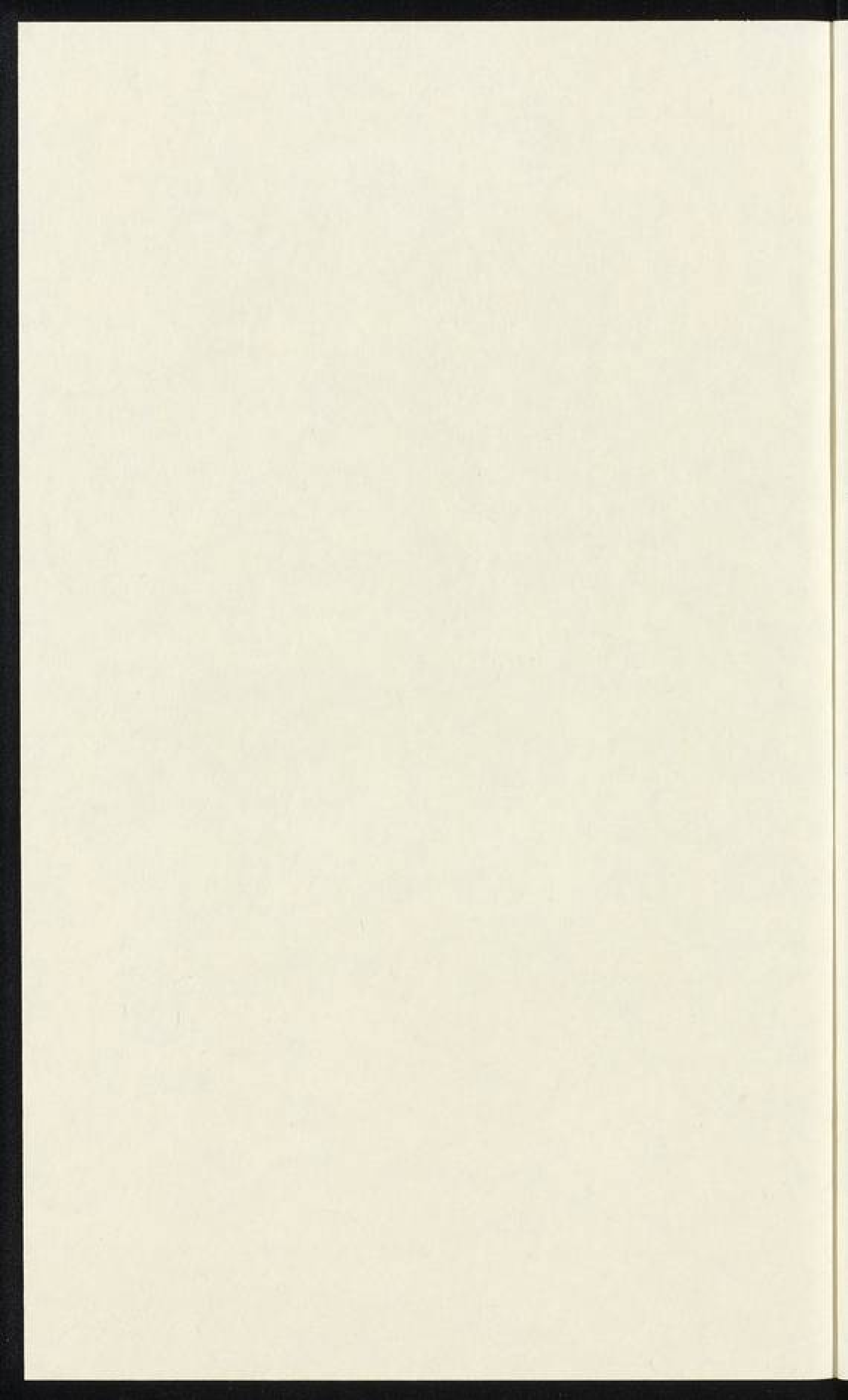
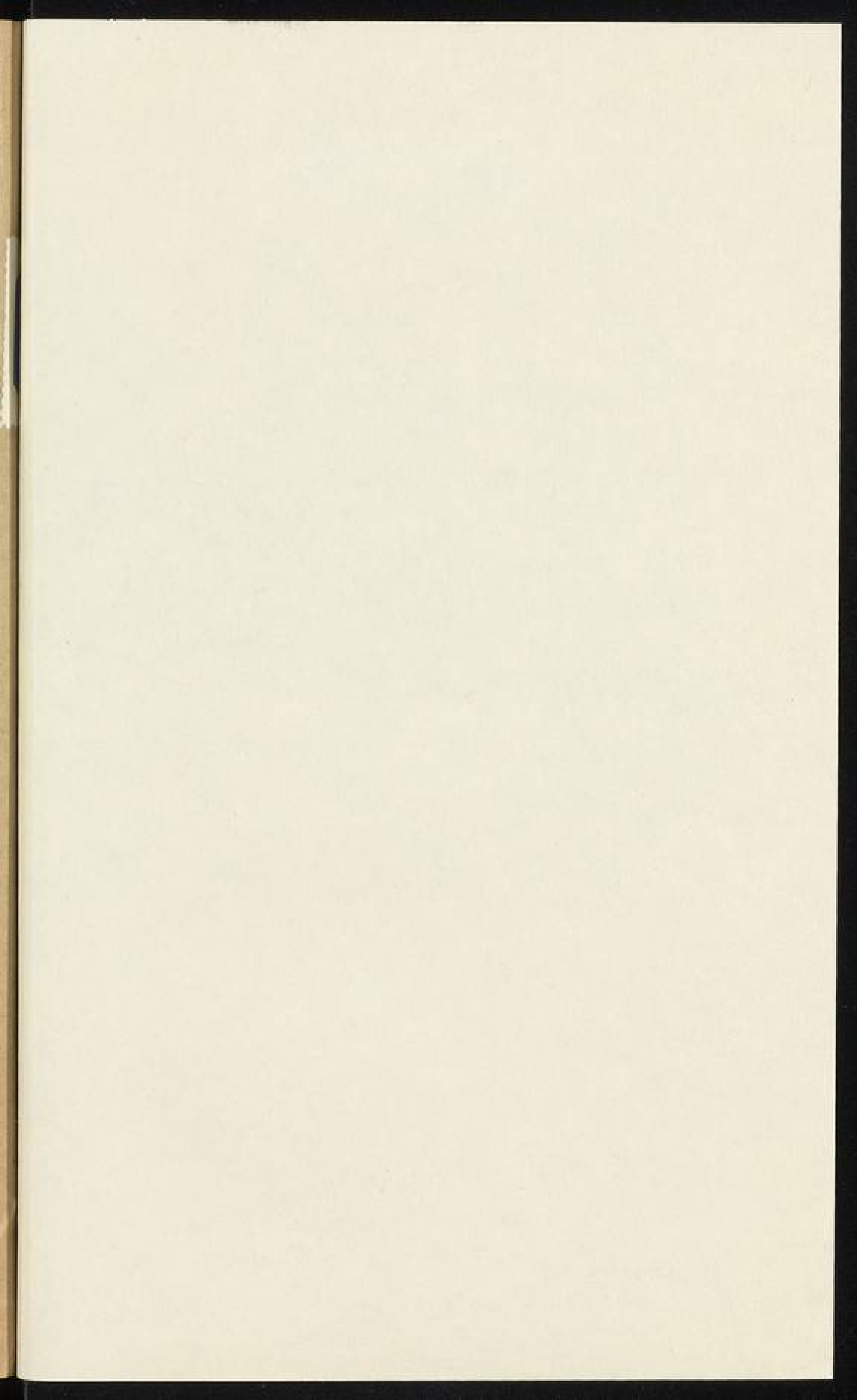





PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 009615541







حُبُكُ الدرارِي

المُرصَّعة بها

حبائك الدُرَر

وهي

تسميطُ الفرائدِ الغُرِّ المُنتخَلة من قلائدِ الدرّ

أو

حسن النظام والسلوك

في

تشطير بدائع «نظم السلوك»

بقَلَم الخورِ فسقفوس جرجس شِلحُت السرياني الحلبيّ

عُفيَ عنهُ

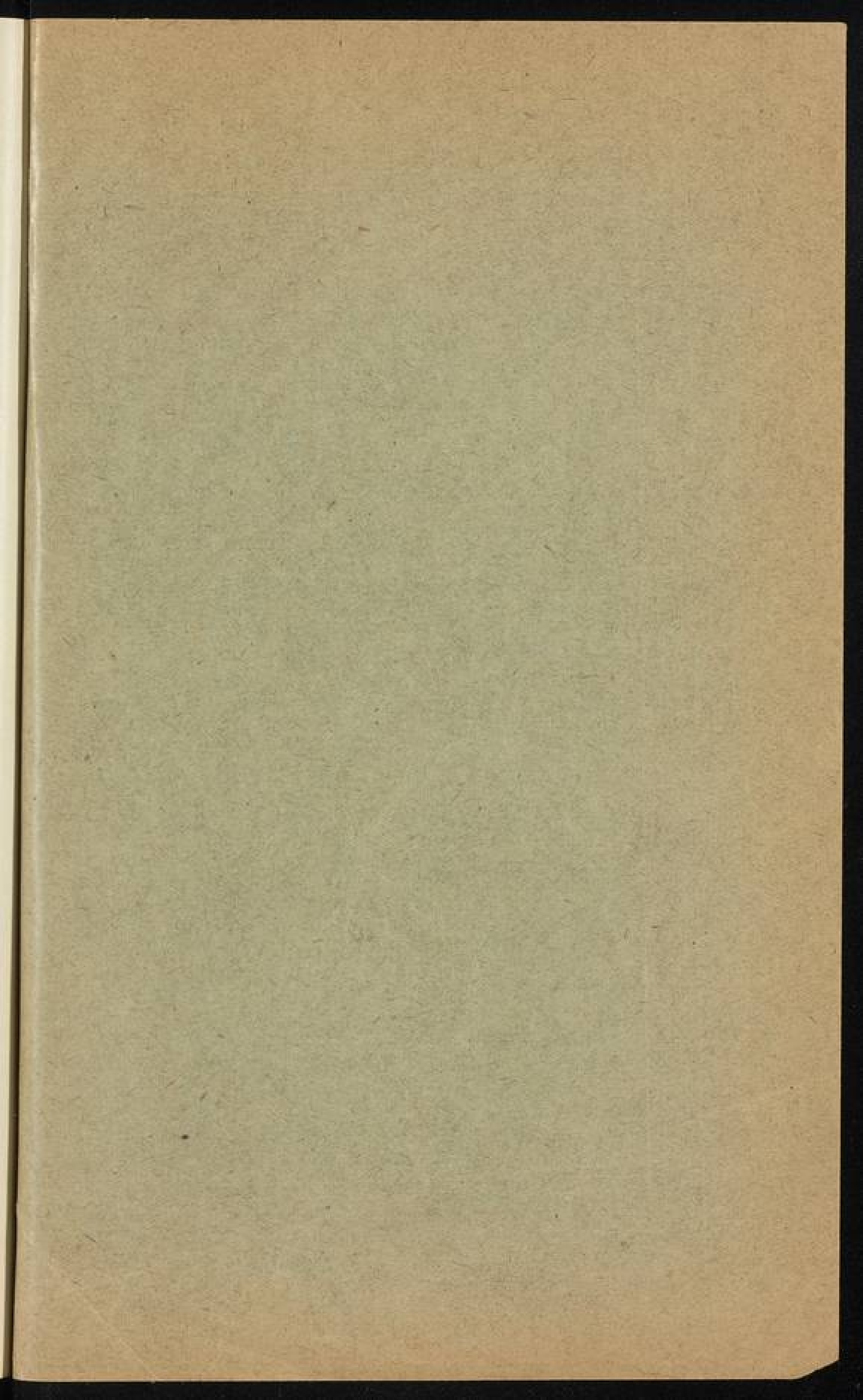
وهذه القصيدة في مُناجاة الله وهي حِكاية حالهِ وخاتمةُ كتاب

النجوى

في الصِناعة والعِلم والدِين

طُبعت بمصر في مطبعة رعمسيس

سنة ١٩٢٠



Shilhut

حُبُكُ الدرارِي

المُرصَّعة بها

حبائكُ الدُرَر

وهي

تَسميطُ الفرائدِ الغُرّ المُنتخلة من قلائدِ الدُرّ

أو

حسن النظام والسلوك

في

تشطير بدائع «نظم السلوك»

بقَلَم الخورِفسقفوس جرجس شِلحُت السرياني الحلبيّ

عُفيَ عنهُ

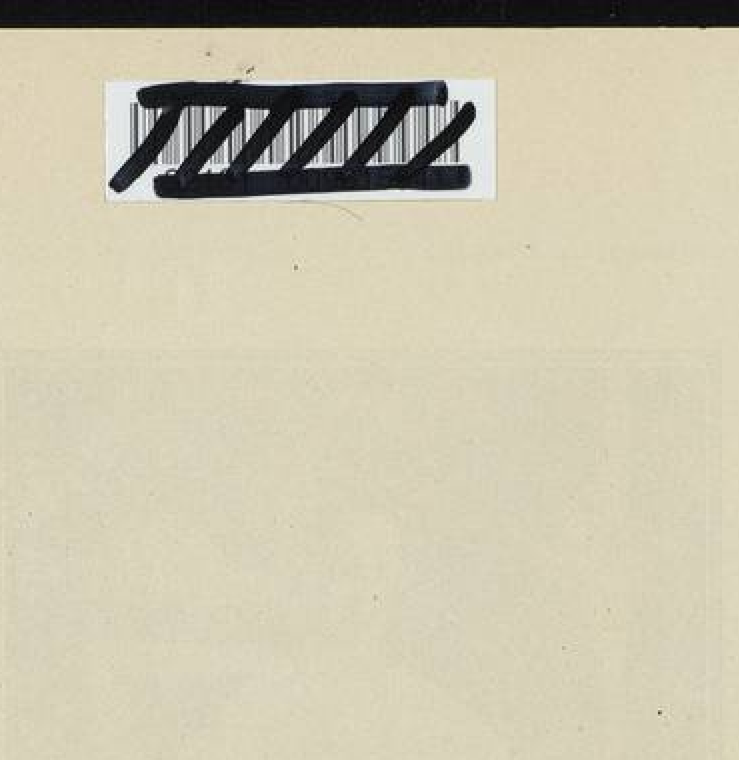
وهذه القصيدة في مُناجاة الله وهي حكايةُ حالهِ وخاتمةُ كتاب

النجوى

في الصِناعة والعِلم والدين

طُبِعَت بمصر في مطبعة رعمسيس

سنة ١٩٢٠





عوذة الكتاب

باسم مطمح أنظار البشرية ومهبط العلم اللدني والحكمة القدسية الحاسر عن طلعات الحقائق خمراً من الظنون رُبدا الكاحل بإثمد التنوير بصائر عدمها وأبصاراً قرحى الجفون رُمدا الجاعل الصلاح عمادَ قلبه والحقَّ مِلاكَ أمره وحماطة لُبّه سيدنا الحبر الأكبر البابا بندكتوس الخامس عشر أيده الله وأمتع الدين والدنيا بجليل مسعاه

أزجّي كتابي كي يفوزَ بحظوةٍ لدى عرشِكَ السامي أيا شمسَ رومةٍ
سيعلو إذا ما لاذَ منكَ بعفوةٍ أيا مطلعَ السعدِ الكريمِ النقيبةِ
ويا مشرعَ الفضلِ الذي لرحابهِ رحالُ ذوي الأرزاء والحاجِ شُدَّتِ
ويا مشعرَ العدلِ الذي لجنابهِ ركابُ أُلي الضرَّاءِ والخسفِ سِيقتِ
تداركتنا والحربُ حامٍ وطيسُها بعزمٍ وحزمٍ واقتدارٍ وحكمةِ
وآتاكَ ربُّ العرش عوناً ووفّقتْ عنايتُهُ مسعاكَ توفيقَ منحةِ
سعيتَ ولم تدخرْ دؤوباً بما بهِ صلاحُ وإصلاحُ الشؤونِ الخطيرةِ
فباهتْ بكَ الدنيا وتاهتْ وأهلُها إليكَ أشارتْ بالبنانِ وأومتِ
مآثرُكَ الغرَّاءُ أشهرُ من لظًى على علمٍ بل من بدورٍ منيرةِ
فمنْ لي بأنْ أقضي حقوقَ ثنائها ولُسْنُ أساطينِ النهى عنهُ كلَّتِ
فأضربُ صفحاً عن مديحكَ محجماً وعنهُ أُجتزأ بالفعالِ الحميدةِ
ألا أسلمْ على الأيّامِ يا كوكبَ الهدى ودُمْ في ازدهارٍ وانتصارٍ وغبطةِ

حُبُك الدَّرارِيّ

المُرصَّعة بها

حبائك الدُّرَر

وهذه القَصيدة في مُناجاة الله

وهي خاتمةُ كتاب النجوى في الصِناعة والعِلم والدِين

وقد كُسِرت على سبعة فُصول

الفصل الاول

في معرفة الله بآثاره

خَتَمتَ ليَ «الجدوى»[١] مُكوِّنَ صورتي · وجُدتَ بفتحٍ كانَ نورَ بَصيرتي

«وما هوَ إلاّ أنْ ظهرتَ[٢] لناظري» · غَلِطْتُ هوَ «النجوى» خَواطِرُ نُهيَتي

(١) العطيّة وختمَ اللهُ لهُ الخيرَ أتمّهُ وفي البيت إشارةٌ الى «الجدوى» وهي حواشي «النجوى» ولا يُختَم الشرح إلاّ بعد ختم المتن

(٢) الإمام العارف الشيخ عُمَرُ بنُ الفارض يتغزَّل بالعزّة الإلهيّة فيؤنِّث مُوهِمًا أنّه من الشعراء أصحاب التشبيب والنسيب وأنا أُناجي ربّي فأذكِّر طورًا ما أنَّثهُ دفعًا لذلك الإيهام وأجمعُ تارةً ما أفردَهُ على سبيل التجِلّة والإعظام فليغفرْ لي جهابذةُ الأدب هذا التصرُّف اليسير ونظائره ممّا حداني عليه نظاري الحسير في جنب حسنات ذلك «التسميط» السهل المُمتنِع الذي سمَق

«بأكملِ أوصافٍ على الحُسنِ أُرْبِتِ» تجلَّيتَ بالآثارِ[1] مجلَّى شهدْتُهُ
سنيعةِ خلقٍ أو بديعةِ صَنعةِ «إذا لاحَ معنى الحسنِ في أيِّ صُورةٍ»
«وناحَ مُعنَّى الحُزنِ في آيِ سُورةِ» أراكَ بعينِ العقلِ[2] ما صاحَ مُطربٌ

بفنِّ التشطير الى أعلى طبقاته ومَن ذاق عرف — أُنظر الحاشيتَين الأوليَين من الفصل الرابع

(١) قالَ السيّد جرمانوس فرحات العالم الحلبيّ الكبير :

إلهٌ رأيناهُ بآثارِ خلقِهِ وإمساكِهِ الكونَينِ في قبضةِ الكفِّ

أجل كانَ الكون ولن يزالَ في نظر الآدميّين عامّةً والعلماء منهم خاصّةً نظيرَ مِرآةٍ بهيةٍ عكس عليها البارئ أشعّةَ جلاله وطبع فيها صورة جماله وكماله وهٰذا ممّا ورّط بعضَ الحكماء فذهبوا مذهبَ الحلول وحمل أحد الصوفية على أن يعرّف الحسن القديم فيقول : «هو صفةٌ أزليّة لله تعالى مُشاهدةٌ في ذاته أوّلاً مُشاهدةً علميّةً فشاء أن يراها في صُنعه مُشاهَدةً عينيّةً فخلق العالم كمرآةٍ شاهدَ فيها عين جماله عياناً» راجع مقدّمة «النجوى» ق ١ ف ١ ص ٢١ وف ٢ ص ٣٥ و٣٩ و٤٣ وف ٤ ص ٧٩

(٢) قال الحكيم الأكبر المخلّدُ الأثر البابا لاون الثالث عشر في منشوره الوسيم في تعليم الفلسفة القويم : « إنَّ وحيَ الحكمة يؤنّب أشدَّ التأنيب جنون أُولئك القوم الذين « بالأشياء المنظورة لم يقدِروا أن يعلموا الكائن ولم يتأمّلوا المصنوعات حتى يعرِفوا صانعَها » حك ١٣ : ١ وعليه فإنَّ أوّل ثمرة من ثمار العقل البشريّ هي البرهان على وجوده تعالى وتلك لعمري ثمرة كبيرة ثمينة قال الله في سِفر الحكمة ١٣ : ٥ « إنّه بعِظَم جمال المبروءات يُبصَر فاطرُها على سبيل المُقايسة »

فوحدةُ ثالوثِ[1] الألوهة قد بَدَتْ بمرآة[2] كونِ العالَمينَ الصقيلة
وآياتُهُ الكُبرى[3] بألسُنِ حالها تدلُّ عليها مُذلياتٍ بحُجَّةٍ
« فكلُّ مليحٍ حُسْنُهُ مِن جمالها » وكلُّ صبيحٍ قامَ حقًّا بجودة[4]

(١) قال القدّيس أوغسطينوس: « إنّ أثر الثالوث يُوجَد في كلّ خليقة من حيث هي شيء واحد ومن حيث إنّ لها صورة نوعيّة ومن حيث إنّ فيها نِسبةً ما » وقال شمس المدارس القدّيس توما الأكوينيّ في الخلاصة اللاهوتيّة ق ١ مب ٩٣ ف ٢: « إنّ الأشياء تُشبه الله أوّلاً وبالشَبَه الأعمّ من حيث هي موجودة وثانياً من حيث هي حيّة وثالثاً من حيث هي عاقلة قال أوغسطينوس: وهذه من شِدَّة الشَبَه بالله بحيث هي أقرب المخلوقات اليه »

(٢) قال الرسول في رسالته الأولى الى أهل كورنتس ١٣: ١٢ « الآن ننظرُ في مرآة أمّا حينئذٍ فوجهاً الى وجه »

(٣) « السموات تنطق بمجد الله والجلد يُخبِر بعمل يدَيه » مز ١٨: ٢ قال أبو الفرج ابن العبريّ في قصيدته الشهيرة التي يتغزّل فيها بالعزّة الإلهيّة ما وردَ تعريبهُ نظماً في « دائرة المعارف »:

بها النورُ انجلى والليلُ أدجى وأمّا النيّرانِ فناظراها
وقد غدتِ العناصرُ والدراري تُساسُ بها وتَلمعُ في سَماها

(٤) علّم أرسطوطاليس تبعاً لسقراط هذا المبدأ الجليل وهو: « لا حسنَ إلاّ ما كان خيّراً » ووافقهما عليه آباء الكنيسة فقال القدّيس أمبروسيوس: « الجميل ما كان صالحاً » وكذا قال القدّيس ديونوسيوس وإقليميس الاسكندريّ وسأل نفسهُ القدّيس غريغوريوس النيصيّ قائلاً: « ما الحسن » وعقّب مجيباً: « ما كان من كلّ وجهٍ جيّداً شهيّاً » وجاء في كتاب « المُقابَسات » لأبي حيان

وكلُّ صَليحٍ خيرُهُ مِن كمالها « مُعارٌ له بل حُسنُ كلِّ مَليحةِ »
« يُشاهِدُها فِكري بطَرْفِ تخيُّلي » إذا ما رأتْ عيني بهاءَ الطبيعة[١]
وأُصغي اليها إن شدتْ وُرْقُ أَيكةٍ « ويسمعُها ذِكري بِمسمعِ فِطنتي[٢] »

التوحيديّ ما نصُّهُ : « كلُّ خيرٍ حَسَن وليس كلُّ حَسَنٍ خيرا » ولكنَّ الحَسَن حقَّ الحُسن ينبغي لهُ أن يكون خيرا

واتباعًا للقدّيس أوغسطينوس أثبت الأب أندراي اليسوعيّ وجودَ جمالٍ «جوهريّ واجب هندسيّ غير خاضع لأيّ وضعٍ كان هو القاعدة السرمديّة لكلّ حسن وتصوّرهُ هو صِناعة البارئ تلك الصِناعة العظمى التي أعدّت لهُ تعالى مُثُل عجائب الخِلقة وبدائعها وغرائب الطبيعة وروائعها » وهو سبحانهُ إنّما يتصوَّر كلمتهُ الأزلية « ضياء مجده وصورةَ جوهره » عبر ١:٣ فهي صاحبة ذلك الجمال المُطلَق مثال محاسن المخلوقات و« كلٌّ بها كُوِّن وبغيرها لم يُكوَّن شيءٌ مما كُوِّن » يوحنا ١:٣ — أُطلب الفصول التي تبحث عن « الحسن » من كتاب «النجوى» وهي الفصول المُستطرَفة التي نشرتُها في السنة الأُولى من مجلّة «الورقاء» تحت هذا العُنوان : «الفنون الجميلة» وطالع أُرجوزة «الكون والمعبد» أو الفنون الجميلة والكنيسة وهي الأُرجوزة المُبتكَرة التي طبعتُها في المطبعة الكاثوليكيّة عام ١٩٠٧

(١) أُريد «بالطَبيعة» هُنا الكون

(٢) قال العلاّمة المحقّق الشيخ عبد الرزّاق الكاشانيّ صاحب شرح «التائيّة الكبرى» المسمّى « كشف الوجوه الغرّ لمعاني نظم الدُرّ » ما روايتهُ ببعض تصرُّف: «أراد بالفكر الذاكرة وهي قوّة تنبعث لطالب شهود الحقائق في صوَرها المِثاليّة وهي من القوى الباطنة بمثابة البصر من الحواسّ فلذلك أسند اليها المُشاهدة وبالذِكر

فتَرنو إليها في هيامٍ ودَهشةٍ «ويُحضِرُها للنفسِ وهمي تصوُّرا»
وتشرعُ في «النجوى» لسمعِ حديثِها «فيحسَبُها في الحِسِّ فهمي نديمي»
يُمثِّلُ للرائي كأنِّي بنشوةٍ «فيرقصُ قلبي وارتعاشُ مفاصلي»
وأبَى بناني داعيَ الحالِ فانبرى «يُصفِّقُ كالشادي وروحي قَينتي[1]»

الذاكرة وهي قوَّة في النفس تتهيأ لقبول التذكير ووَعي المعاني فيها وهي من القوى الباطنة بمثابة السمع من الحواسّ فلذلك أسند اليها السَّماع وبالوهم الواهمة وهي قوَّة تُحضِر للنفس صورة معنوية أو غير مُطابقة على سبيل البداهة وبالفهم الفاهمة وهي قوَّة تُدرِك بها النفس الحقائق والتخيُّل مُلاحظة خيال المحسوس والصُّوَر عند قبول النفس صورةً مِثالية جسمانيَّة أو روحانيَّة أي يُشاهد فِكري خيال جمال الذات الأزليَّة ويسمع ذِكري صوتَها ويُحضِر وهمي صورتَها فيحسَبها فهمي نديمي في حِسِّ البصر بالمُجاوَرة وفي حِسِّ السمع بالمُحاضَرة ...» الى أن قال: «إنَّ للعارف مُشاهَدات روحانيَّة ومُحاضَرات قلبيَّة ومُسامَرات سِرِّيَّة جلَّت عن الأفهام والأوهام»

(١) قال الشارح: «شدا فهو شادٍ غنَّى والقَينة مغنِّية استعارها للروح من جهة المُحاكاة بين مُشاهَدتها وغِناء المغنِّية في الاضطراب وارتعاش المفاصل عند السَّماع يكون لمفاجأة سطوة الجلال فإنَّها تُورِث هيبة واهتزاز القلب يكون لموافاة نور الجمال فإنَّه يُحدِث طرَبا» انتهى كلامه وعليه قِسْ سائر الشرح ولذلك فإنِّي لا أقتبس منهُ إلَّا إذا كان البيت الذي أُشطِّرهُ مُغلَقًا أو مُتضمِّنًا ألفاظًا من اصطلاح علماء التصوُّف هذا وفي الختام أُثني على الشارح ثناءً طيِّبًا يُديم لهُ جميل الذكر ما تُليت «خاتمة النجوى» أو «التائيَّة الكبرى» التي هي من الصالحات الباقيات على وجه الدهر

ولـكنَّني إذ ذاكَ أَسمعُ هاتفًا يُهيبُ بنفسي في انتهارٍ وزَجرةِ
يُناجي جَناني ناصحًا لي قائلًا: رُوَيدَكَ لا تدنُ اتَّئدْ وتلفَّتِ
«فطُورُكَ[١] قد بلَّغتَهُ وبلغتَ فو ت ما كانتَ «النجوى» بمَنزاهُ نِيطتِ
تذكَّرْ بموسى[٢] واقصُرنْ سَموتَ فو ق طورِكَ حيثُ النفسُ لم تكُ ظنَّتِ»

---

(١) قال الشارح ما مُلخَّصه: «الطُور هُنا كناية عن مقامٍ يبلغ فيه السالك حدَّه من القرب الى ربّه كما كان الطُور كذلك بالنسبة الى موسى عليه السلام لمّا مُنِع عن رؤيته تعالى «بلن تراني» أي إنَّك وصلتَ في طُورِ التجلّي الى حدٍّ فوق طَور نفسك حيث لم تظنَّه النفس مَبلغَ سيرها وهو مقام الاتّحاد وهذا حدُّكَ قِف عِنده لأنَّك لو تقدَّمتَ عنه خُطوة لصَعِقتَ أو لو دنوتَ بعدَها أُنملةً لاحترقتَ بجذوة»

(٢) كلَّم موسى الربَّ «قال: أرِني مجدَكَ قال: أنا أُجيز جميعَ جودتي أمامَكَ وأُنادي باسم الربّ قدّامَكَ وأصفح عمَّن أصفح وأرحم مَن أرحم وقال: أمّا وجهي فلا تستطيع أن تراهُ لأنَّه لا يراني إنسانٌ ويعيش وقال الربّ: هـا هوذا عندي موضع قِف على الصخرة ويكون إذا مرَّ مجدي أنّي أجعلُكَ في نُقرة الصخرة وأُظلّلكَ بيدي حتّى أجتاز ثمَّ أُزيل يدي فتنظر قفاي وأمّا وجهي فلا يُرى» سفر الخروج ٣٣: ١٨ الى ٢٣ ولقد فسَّر بعض اللاهوتيّين هذه الآية التي قالها الله عزَّ من قائل لموسى كليمه في معرِض التنبيه والإرشاد وهيَ: ليس لكَ أن ترى وجهي وإنّما لكَ أن ترى قفاي بما يأتي: يُعرَف جوهرٌ ما على وجه الاستقامة بمعرفة عِلله المادّيّة والصوريّة أو الفاعليّة والغائيّة ويُعرَف على وجه غير الاستقامة بمعرفة معلولاته وتُدعى الطريقة الأُولى البُرهان اللِمّيّ والثانية الإنّيّ فقال الله

«وحدك هذا عنده قف فعنه» إن بغيت المزيد الفائق الطوق تكبت
ألا انظر الى خلف ودع طلعتي فلو تقدمت شيئاً لاحترقت بجذوة»
«وأنت على ما أنت عني نازح» تروم اقترابا والبعاد قضيتي[1]
فإني من خلقي مناط المجرة «وليس الثريا للثرى بقرينة»
«ومن مطلعي النور البسيط كلمعة» ومن عظموتي كل علو كهوة[2]

لكليمه: ليس لأحد أن يرى وجهي أي أن يعرفني على وجه الاستقامة وبالبرهان عن المعلول بالعلة وإنما له أن يرى قفاي أي أن يعرفني على وجه غير الاستقامة وبالبرهان عن العلة بمعلولها فنستدل والحالة هذه عليه تعالى من آثاره البينة لنا وهي مخلوقاته كما نستدل مثلاً على الشمس من المفاعيل الناشئة عنها كالضياء والحرارة أو كما نهتدي الى معرفة علو أهرام مصر بقياس أظلالها المنبسطة على الحضيض وهذا ما دعا المزمر أن ينشد: «أيها الرب سيدنا ما أعظم اسمك في كل الارض وقد جعلت جلالك فوق السموات إني أرى سمواتك عمل أصابعك والقمر والكواكب التي كونتها» مز ٨: ١و٣ — انتهى ملخصاً عن عظة لي في سر التجسد فحواها: السبب الذي حمل ابن الله تقدس اسمه على أن يأتي العالم بنفسه وستنشر هي وسواها من المواعظ والخطب في كتابي المسمى «الباكورة» بعونه سبحانه وحسن تيسيره.

(١) قضي بين الخصمين يقضي قضيا وقضاء وقضى وقضية حكم وفصل

(٢) قال اشعياء النبي ٤٠: ١٥و١٧و١٨: «ها إن الأمم تحسب كقطرة من دلو وكهبوة في ميزان جميع الأمم لديه كلا شيء وتحسب أمامه عدماً وخواء فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلونه به» قال شاعر الشهباء الكبير ميخائيل

ومن جبروني كل كونٍ كهبوةٍ «ومن مشرعي البحر المحيط كقطرة[1]»

أفندي الصقال مجيباً على اقتراحٍ اقترحته مجلّتي المعروفة «بالورقاء» في الجزء الثالث من سنتها الأولى:

هذه سمواتنا والأرض لو جمعت جميعها ألسناً لله أو كتبا
وسبّحت أبد الآباد معربةً عن وصف قدرته لم توفِ ما وجبا

(١) لا جرم أنّ نور الشمس بالنسبة الى سبحات وجه الله كلمعةٍ بالنسبة الى نور الشمس والبحر المحيط بالنسبة الى غزارة جرده كقطرةٍ بالنسبة الى البحر المحيط قال الإناء المصطفى: «له وحده الخلود ومسكنه نورٌ لا يدنى منه» ١ تيمو ٦:١٦ وقال الأب البارّ لاونرد لِسيوس اليسوعيّ في ف ٣٣ من مؤلّفه الموسوم «بالأسماء الإلهيّة» المنسوج برده على منوال مصنّف القدّيس ديونوسيوس: «إنّ الكتاب يقول في الله إنّه «نور» و«في النور» ١ يوحنّا ١:٥ و ٧ من حيث إنّه تعالى بالعلم والمحبّة والغبطة ساكنٌ في مقدس لاهوته وإنّه بالذات نورٌ لا يُرام» وقال القدّيس باسيلوس في تفسير ستّة أيام الخليقة: «إذا كانت هذه الشمس على قبولها للفساد رائعة الجمال فما تكون في حسنها شمس البرّ المتفرّدة بالبقاء والبهاء والجلال» وقال البابيّ الشاعر الحلبيّ المشهور:

هوت المشاعر والمدا رك عن معارج كبريائك
يا حيُّ يا قيّومُ قد بهر العقولَ سنا بهائك
ما الكونُ إلاّ ظلمةٌ قبس الأشعةَ من ضيائك

فازدان الكون بمحاسن فتنت العلاّمة الإسوجي كَرلوص لِنّاي إمام المتكلّمين المحدثين على طبائع الجماد والنبات والحيوان ودعته أن يهتف قائلا: «رأيت الله وهو مارٌّ من الوراء على مثال الكليم أجل رأيته ووقفت حائراً مدهوشاً

الفصل الثاني

في آمتناع العِلم اللَدُنِّي [١] على صاحب «النجوى»

أُجيبُ: أَجلْ مولايَ لَبَّيكَ إِنَّني مُطيعٌ وإلاَّ فالعَياءُ مَطيَّتي

لا أُحيرُ كلاما . . . على أنّي ألفيتُ آثارَ قدمَيه في مصنوعات يدَيه تلكَ المصنوعات التي في أصغرها بل في أحقرها بدتْ لي مَظَاهِرُ حِكمةٍ وقُدرةٍ بَدبعة ومَجالي جمالٍ وكمالٍ رائعةٌ سنيعة»

(١) هو العِلم الذي تعلَّمه العبد من الله تعالى من غير واسطة أو هو «عِلم القِدّيسين» حكمة ١٠:١٠ ولا شكَّ أنَّ الأولياء وأرباب الرُؤى النَبويّة وأولي الكشف من أصحاب السيرة الروحيّة يحصُلون بالنِعمة على معرفةٍ بالله أعلى من معرِفته بالعقل الطبيعيّ كما علَّم الأُستاذ المَلَكيّ في خلاصته ق ١ مب ٢ ف ١٢ وعليه فاسمحْ لي يا رعاكَ الله أن أستشهد بكلام العالم السُريانيّ الكبير أبي الفرَج ابن العبريّ قال في كتاب «الحَمامة» ب ٣ ف ٨: «إنَّ الباحثين يعرِفون الخالق من المخلوقات وأمّا المختارون فإنّهم من البارئ يعرِفون المبروءات والمزمّر الإلهيّ أشار الى المعرفة الأُولى بقوله: «السموٰاتُ تنطقُ بمجدِ الله» والى الثانية بقوله: «بنورِكَ نُعاينُ النور» مز ١٨: ٢ و٣٥: ١٠ وورَدَ في مقدّمة «كشف الظنون» ما حكايته: «لسالِك سبيل الحقّ طريقتان الاولى منهما طريقة الاستدلال والثانية طريقة المُشاهَدة وقد ينتهي كلٌّ من الطريقتين الى الأُخرى فيكون صاحبُهُ مَجمَعاً للبحرين»

وهنا أسألك يا صاح ألاَّ تتسرَّع وتنعى عليَّ كلامي أو آستشهادي في هٰذه الحاشية أو في غيرها بقول ابن العبريّ وأقوال أمثالهِ من أكابر العلماء وهي

الأقوال التي لا يُحقِقها إلاّ من آختبرَها بنفسه من أرباب طوْر الولاية إن كان من الصادقين كالقدّيسة تَرازيا عِندنا والمغبوط يوحنّا الصليبيّ مَثلا . . . وما أنا وأبو الفرج وسوانا من الكتبة الأُرثوذكسيّين والغبر الأُرثوذكسيّين إلاّ راوو هذه الحال لا مُشاهِدوها وما كان أجدرَنا بالسكوت عنها لولا لَذّة بيانها التي لا تُعادِلُها في الدنيا لَذّة عملاً بقول الطغرائيّ :

ويا خبيرًا على الأسرارِ مطّلِعًا   أُصمُتْ ففي الصمتِ مَنجاةٌ من الزَللِ

واتّباعًا لخُطى أبي حامدِ الغزاليّ الجامع بين الفلسفة والتصوُّف وتمشّيًا على خِطّته في بعض أطوار حياته وهو الذي تفاديًا من أن تُرمى عقيدتهُ بمذهب الحلول (مذهب القائلين بأنّ الله حالٌّ في كلّ شيء ومتحِدٌ بكلّ جزء منه حتّى صار يصِحُّ في رأيهم أن يُطلَق على كلّ شيء أنّه الله) قال عِند وصوله الى شِبه تلك الحال على ما زعم صاحبُ رِسالة حيّ بن يقظان مُتمثِّلاً بهذا البيت :

فكانَ ما كانَ مِمّا لستُ أذكرُهُ   فظُنَّ خيرًا ولا تسألْ عنِ الخبرِ

وإلاّ ففي نظر الغير المتضلّع من اللاهوت السرّيّ الذي أشهرُ معلّميه القِدّيس ديونوسيوس يشِفُّ قول ابن العبريّ المُورَد آنفًا عن مذهب الوجوديّين الفلسفيّ — وشتّانَ ما بينَ عِلم المكاشفة والحكمة النظريّة وبعبارةٍ اخرى شتّانَ ما بين النظام الفائق الطبيعة والنظام الطبيعيّ — وهم المعروفون «بالعِيانيّة» القائلون وفي طليعتهم الفيلسوف الفرنسويّ مَلبرَنش بأنّ الإنسان متمتّع منذُ الآن بمعاينة الذات الإلهيّة مثالِ الموجودات جميعها وهي المِثالُ المطبوع في العقل الذي يعرفهُ معرفةً تفوق عِلمه بسائر الأشياء بل الذي به يعرفها وإن كانت من عالَم المحسوسات ولا عيبَ في هذا المذهب ثمرةِ المدارك السامية سوى بُطلانه ولو كانَ صحيحًا

لأصبحت الأرض سماء ... هذا إن تكلمنا فلسفياً أمّا أهل العبادة واللاهوت السرّيّ فلهم عن عالَم القلب المشغول بهيبة المتجلّي المشغوف بجماله المطلَق الكلّي إشارات ولطائف لا يدري كُنهها إلاّ من أُنعِم عليه من الأولياء وذلك فضلُ الله يُؤتيه مَن يشاء كما مرَّ بكَ من الأقوال في متن «النجوى» وشرحها وكما سيمرُّ بكَ في كتابي الآخَر الموسوم «بالفُلك النُوحيّة أو المقصورة الرُوحيّة في السيرة الرُوحيّة»

وها ءنذا أُثبت لكَ قِطعةً منها في الكلام على «العِلم اللَدُنيّ» وإذا أردتَ المزيد فعليك بمُطالعة ختام السنة الأولى من مجلّة «الورقاء» الى أن يقيّض الله لي نشرَ هذه الخريدة العذراء التي طلعتْ أنوارُها من مطلعِ الشهباء وهي أوّل «مُلحَمة» بين الناطقين بالضاد عربيّةِ الوضع والإنشاء وما «خاتمة النجوى» سوى فاتحة تلك المُلحمة الزاخرة العُباب الغزيرة الجداء :

عِلمٌ بُناةُ إساسهِ وصُروحهِ	أخيارُ قدّيسينَ هم سُرُجُ الهُدى
عِلمٌ غدا القلبُ المطهرُ كِنَّهُ	قلبٌ منَ الآثامِ قد حازَ الشِفا
قلبٌ بهِ شجرُ الكمالِ تأثّلتْ	وثمارُها نضجتْ وطابَ لها الجنى
قلبٌ بأنوارِ التجلّي طافحٌ	فيضاً وذلكَ ليس يُدرِكهُ الحِجى
والقلبُ فيهِ شواهدٌ أسرارُها	تخفى على عقلٍ تناهى في الذكا
هٰذا مقامٌ لا يفوزُ بهِ الأُلى	أعناقُهم غُلّتْ بأرباقِ الهوى
هٰذا مقامٌ يرتقيهِ من نوى	إرضاءَ باريهِ وبالدنيا ازدرى
ثقبتْ بصيرتُهُ وراحتْ نفسهُ	تسري على رُشدٍ وتسرِعُ في الخُطى
يسقي غِراسَ صوالحِ الأعمالِ من	عَبَراتِ آماقٍ تحلّبُ بالدما
يعصي الهوى ويُميتهُ وهوَ الذي	إن طاوعتْهُ النفسُ أوردَها الرَدى

فإنّي في الدُنيا مقيَّدُ خطْوةٍ «وإن بُسِطت كفي الى البَسْطِ[1] كُفَّتِ»

كالنارِ إنْ لم تؤتِها حطباً خبتْ وإذا أتيتَ به تسعَّرتِ ٱلتظا

فإذا أماتَ هواهُ يكتسبُ الوَلا عِندَ الإلهِ وحُظوةً لا كالحُظى

وإذا ٱرتقى هذا الوليُّ الى ذُرى تلكَ المحبةِ لا يحِسُّ ولا يرى

كلاّ ومَن هوَ لا يحِسُّ بنفسهِ يوماً فهل يهتمُّ بالدُنيا تُرى

تخفى على العينِ الكواكبُ إن بدا قرنُ الغزالةِ مشرقاً رأدَ الضحى

ولا بأسَ أن أُورد هنا ملخَّص «الفلكُ النُوحيّة» الذي أثبتُّهُ في إحدى حواشي أُرجوزتي المعروفة «بالكون والمعبد» وفي آخر مقالةٍ في «أشعر الشعر» نشرتُها في مجلّة «الورقاء» وهو: «المقصورة الرُوحيّة» إنما هي مُلحَمة مستطرَفة فيها سردتُ بالشعرِ العربيّ قصةَ ٱرتحالٍ الى فِردَوس عدْن وعروجٍ الى السماء كانا قد ٱتّفقا لي في بعض الأحلام وعلى مثال مِلتُن صاحب «الفردوس الغابر» ودَنتي صاحب «الرواية الإلهيّة» والمعرّيّ صاحب «رسالة الغفران» وصفتُ ما تجلّى لي في الجنّتين وأفضت بي خاتمةُ المطاف الى الهبوط على طُور سيناء وعلى ذاك الجبل المقدَّس مدحتُ «السيرة الرُوحيّة» وكان بها مِسكُ الختام»

(١) قال السيّد الشريف الجرجانيّ في كتاب التعريفات: «القبض والبسط عِند الصوفيّة هما حالتان بعدَ ترقّي العبد عن حالتي الخوف والرجاء فالقبض للعارف كالخوف للمستأمِن والفرق بينهما أنّ الخوف والرجاء يتعلّقان بأمرٍ مستقبَل مكروه أو محبوب والقبض والبسط بأمرٍ حاضرٍ في الوقت يغلب على قلب العارف من واردٍ غيبيّ والوارد كلّ ما يرد على القلب من المعاني الغيبيّة من غيرِ تعمُّد من العبد» وعلى ما في رسالة اصطلاحات الصوفيّة الواردة في الفتوحات المكّيّة: «إذا أوجب ذلك الوارد الإشارة الى عتاب وتأديب أورثَ القبضَ نفسَ العارف وإذا

«فمِنّيَ مجذوبٌ إليها وجاذبٌ» الى العالَمِ السفليِّ طَوعَ الجِبلَّةِ
يَميلُ الى فوقُ النفوسُ وجِسمُها «إليهِ ونَزعُ النَزعِ في كلّ جَذبةِ[١]»

أوجب الإشارة الى رحمةٍ وأُنس أحدثَ في نفسه البسط» وقال الشارح في غير واحدٍ من مواضع الشرح ما مُحصَّله : «البسط هنا بمعنى المُباسَطة وهي ارتفاع الحشمة والقبض بمعنى الإمساك عنها أي إن هممتُ بنظارةٍ الى الذات المقدَّسة تُصرَف عيني عنها بصوارف الهيبة وإن قصدتُ الى مُباسَطتها مُنِع قصدي بموانع العظمة وأكثر ما يُطلَق لفظ القبض والبسط على حالين شريفين يُنشئهما القابض الباسط سبحانه ويتولَّد من حال البسط فعل المُباسَطة ومن حال القبض فعل الإمساك عنها والحقُّ تعالى يربّي باطن العبد بين تعاقب حالتَي القبض والبسط ودورانهما عليه كما يُربّي ظاهرَه بتعاقب الليل والنهار واختلافهما فتارةً يُغشي ليلَ القبض نهارَ البسط وتارةً يُولج نهارَ البسط في ليل القبض ليُبلّغه بذلك مبلغَ كماله»

(١) النزع الأوّل من نزع الروح والثاني بمعنى الجذب والمجذوب هو النفس تنجذب بنعمة الله الى السماويّات والجسم يجذِبها بأهوائه الى الأرضيّات وكلٌّ واحدٍ من الجاذبَين العُلويّ والسُفليّ آخذٌ بأزمّتها يسمق بها هذا الى أعلى الدرجات ويهبُط بها هذا الى أسفل الدركات على أنّ كلاًّ من روحانية النفس وشهوانيّة الجسد داخلٌ في حقيقة الانسان فيكون كلٌّ من المجذوب والجاذب جزءًا منه وبسبب شدّة الجذب يحصُل لهُ أثر نزع الروح في كلّ جذبةٍ من جذَبات أجزائه قال الجامعة ١٢ : ٧ «يعود التراب الى الأرض حيث كان ويعود الروح الى الله الذي وَهَبه» وقال أبو الفتح البستيّ :

يا خادمَ الجسمِ كم تسعى لخِدمتهِ أتطلُبُ الربحَ في ما فيهِ خُسرانُ
أقبِلْ على النفسِ واستكمِلْ فضائلَها فأنتَ بالنفسِ لا بالجِسمِ إنسانُ

« وما زلتُ في نفسي بها مترددًا » وصورتُها في الذهنِ عنها تجلّت
فأهفو بها شوقًا إليها مولّهًا « لنشوة حسّي والمحاسنُ خمرتي[١] »
الى أن نحوتُ القدسَ قصدَ اجتلائها ورمتُ دنوًّا من جلالِ الألوهةِ
« هنالكَ الى ما أحجمَ العقلُ دونهُ » أردتُ وصولاً جائزًا حدَّ قوّتي
فأبتُ وقد غرّتني النفسُ أنّني « وصلتُ وبي منّي اتّصالي ووُصلتي »
« ففي كلِّ عضوٍ فيَّ إقدامُ رغبةٍ » وإقبالُ ساعٍ في حيازةِ مُنيةِ
ومن منعةِ[٢] اللاهوتِ إدبارُ خيبةٍ «ومن هيبةِ الإعظامِ إحجامُ رهبةٍ[٣] »

وقال أبو العلاء المعرّي وقد عنى بقولهِ النفسَ الأمّارة بالسوء :

إنّي ونفسي أبدًا في جِذابْ أكذبُها وهيَ تحبُّ الكِذابْ

وقال الخوري نيقولاوس الصائغ الشاعر الحلبيُّ الخطير :

إنَّ الطبيعةَ ما زالتْ تحاولُ ما يخصُّها ولما تهوى تجاذبني
فالجسمُ يبغي انتصارًا في هواهُ على روحي وكلٌّ بما يبغي يطالبني

وقال أيضًا :

تلفتُ إذ في تلافي الجسمِ حرتُ فإنْ غزوتهُ ملَّ أو هادنتهُ انتصرا

(١) أريد محاسن الكون الباهر النظام فمن رنا إليها يسكر حسُّه من غير ما مُدام ويحاول عقلهُ أن يدنو من حمى الجمال المُطلَق الذي لا يُرام :

وصرّحْ بإطلاقِ الجمالِ ولا تقلْ بتقييدهِ ميلاً لزخرفِ زينةِ

(٢) المِنعة بالكسر الاسم من الامتناع كالحِسبة من الاحتساب

(٣) إضافة الإقدام الى الرغبة والإحجام الى الرهبة إضافة المسبَّب الى سببه

«وفي رَحَموتِ البَسْطِ كُلِّيَ رَغْبةٌ» وفي مَلَكوتِ الإبنِ إنقاذُ طِينَتي[١]

وكُلِّيَ لِسانٌ شاكِرٌ نِعمةً لهُ «بها انبسطت آمالُ أهلِ البَسيطةِ»

«وفي رَهَبوتِ القَبضِ كُلِّيَ هَيْبةٌ» وفي جَبَروتِ الآبِ[٢] إحداثُ خَشْيَتي

وفي خِلْقةِ الحَوْلِ الإلهيِّ حَيْرتي «ففي ما أجلتُ العينَ منّي أجلّتِ»

«وأعجبُ ما فيها شَهِدتُ فراعَني» صَلاحٌ وحقٌّ ظاهرانِ بِبَهْجةِ[٣]

وكذا إضافة الهيبة الى الإعظام فالإعظام سبب الهيبة والهيبة سبب الرهبة والرهبة سبب الإحجام والخشية انقباض الباطن لثِقَل سطَوات العظَمة

(١) قال «صائغ الدُرَر» ومُبدِع الغُرَر :

ليسَ لي راحةٌ بها أستريحُ في حَياتي إلّا يسوعُ المسيحُ

هل يُرى في سِواهُ لي من سُكونٍ يا إلٰهي مَن ذا سِواكَ يُريحُ

أنتَ كُلّي وأنتَ كُلٌّ لِكُلّي أنتَ روحي بل أنتَ للرُّوحِ رُوحُ

قد تدلَّيتَ من سَمائكَ حتّى غمَرَ الناسَ فضلُكَ الممنوحُ

وقال «بلبل مِصر» وشاعر العصر :

وُلِدَ الرِفقُ يومَ مولدِ عيسى والمُروءاتُ والهُدى والحياءُ

وزَها الكونُ بالوليدِ وضاءَت بِسَناهُ منَ الثرى الأرجاءُ

وسَرَتْ آيةُ المسيحِ كما يسـ ـري منَ الفجرِ في الوجودِ الضِياءُ

تملأُ الأرضَ والعوالمَ نورًا فالثرى مائجٌ بها وَضّاءُ

(٢) إنّ تثليث الأقانيم في الله الواحد كان لهُ رموزٌ وأشباه عِند كهنة المصريّين والهنود وفلاسفة اليونان والرومان وسواهم من امم الأرض

(٣) البهجة هنا بمعنى الحسن وما الحسن إلّا الوحدة والحقّ والخير والكمال

ولمّا قصدتُ الذاتَ فالعزُّ زاعني «ومن نَفْثِ روحِ القُدْسِ في الرُوع رَوعتي»
«وبالجمعِ للوصفَيْنِ كليَّ قربة[١]» أُرجّي بها نيلَ الحيوةِ السعيدة

والنظام ساطعةً أنوارُها ومُشرقةً أضواؤها بين مظاهر الوجود منوّرةً للعقل مخاطبةً القلب مستغرقةً الإرادة مؤثّرةً في المُصوِّرة وسائر القوى الباطنة مُدهشةً الانسان كلّه وخاطفةً بصرهُ وبصيرتَه يسمع وينظر فيُدرك ويفهم فيُحبّ ويَعجب طائرًا بروحهِ على أجنحة «النجوى» الى ربّ الصباؤُوت «مبدإ كلّ جمال» حكمة ١٣ : ٣ منتقلاً من محاسن الطبيعة اليه مرفرفًا بجَناحٍ مَهيض حواليْه مُحجمًا دونَ الوصول الى مقدِس ذاته ناكصًا على عقِبَيه :

ألا كلُّ خيرٍ إنّما أصلهُ اللهُ وكلُّ جمالٍ إنّما اللهُ مبداهُ
تجلُّ عنِ الحسنِ المقيَّدِ ذاتهُ وما الحسنُ إنْ أطلقتَ معناهُ إلّاهُو
فحقٌّ صلاحٌ وحدةٌ أزليّةٌ سَناها جمالٌ عنكَ أُخفيَ معناهُ

(١) قال صاحب التعريفات : « ما يكون كسبًا للعبد من إقامة وظائف العبوديّة وما يليق بأحوال البشريّة فهو فرق عِند الصوفيّة وما يكون من قِبَل الحقّ من إبداء معانٍ وابتداء لطفٍ وإحسان فهو جمع ولا بدّ للعبد منهما » وقال الشارح ما محصَّلُه : « صاحب الجمع يُضيف الى نفسه كلّ أثرٍ ظهر في الوجود وكلّ فعل وصفة واسم لانحصار الكلّ عِنده في ذاتٍ واحدة فتارةً يحكي عن حال هذا وتارةً عن حال ذاك ولا نعني بقولنا : قال فلان بلسان الجمع إلّا هذا وقولُ الناظم في ما نسب الى نفسه من الصفات العُلويّة محمولٌ على هذا لا غير فافهم ذاك فإنّه من الأسرار العزيزة ينحلُّ به كثيرٌ من مُشكِلات التائية الكبرى وينزّه عقيدة صاحبها عن مذهب الحلول »

وإذا تبيَّنتَ ذاكَ فاعلمْ أنّي لمّا كنتُ لا أقصد هذا الاصطلاح قلت :

أقولُ لِنفسي والهوى يقرعُ الهوى «فحيَّ على قُربى الخِلالِ الجميلةِ[١]»

«وبالجمع للوصفَينِ كلّيَ قُربَةٌ» بدلاً من قول الناظم: «وفي الجمعِ بالوصفَينِ كلّيَ قُربةٌ» فقولي معناه: بالجمعِ بين البسط والقبض والرغبة والرهبة كلّيَ قُربةٌ الى الله أؤمِّل بها نيل السعادة الأبدية أمّا قول الناظم فمعناه: في حال الجمع المشروح آنفًا وباجتماع الوصفَين أي ما تقابل من البسط والقبض والرغبة والرهبة كلّي قُربة لانتفاء البعد في هذه الحالة من كلّ الوجوه وإذ ذاك فينادي المُريدين لا بلسان الفخر بل بلسان الجمع قائلاً: «فحيَّ على قُربى خِلالي الجميلةِ» أي هلمّوا أيّها الطلّاب وسارعوا الى قرب صِفاتي الحسان والعجب كلُّ العجب اتّصاف الشيء بصفتين متقابلتين وذلك من خواصّ معنى الجمع ونوادره وأمّا هذا العاجز فإذ كان لا يُريد هذا المعنى ناجى نفسه والهوى يقرَعُ الهوى خاشعًا قائلاً: هلمّي يا نفسِ وسارعي الى التحلّي بالأخلاق الحميدة والمزايا الفريدة

وأيضًا فذلك ما دعا الناظم أن يقول بلسان الجمع في البيت الوارد سابقًا: «ففي ما أجلتُ العينَ منّي أجلّتِ» أي في كلِّ شيءٍ أجلتُ عيني أجلّني وعظّمني وهابني لأنّ الضمير في «أجلّت» جعلهُ الشارح عائدًا الى ما وأنّث لإرادة التأنيث في ما وفيه نظر أمّا أنا فأردتُ أن يعود الضمير الى العين فقلتُ ما مفادُه: كلُّ شيءٍ من المخلوقات أجلتُ العينَ منّي أي عيني في صورته أجلّته عيني وعظّمته وهابته لأنّه أثرٌ من آثار صُنع بديع السموات والأرض وكان المقام يقتضي أن أقول: «أجلّته» فاعترضت القافية فاكتفيتُ بها عن الضمير وهذا من البديع بيدَ أنّ الاكتفاء حاصلٌ على كلا التفسيرين فاقرأ وتدبّر:

وبدائعُ اللهِ القديرِ كثيرةٌ فيَخورُ فيها لُبُّنا ويَحارُ

(١) قال الفيلسوف السُرياني الكبير يحيى بن عديّ التكريتيّ في كتاب

«ومابين شوقٍ واشتياقٍ فنيتُ في[١]   مشادهِ جذبي دون فوزٍ برؤيةِ

«تهذيب الأخلاق» ما نصه : «إنَّ المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدًا أما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثرُ الناس فإنَّ الغالب على طبيعة الانسان الشرّ»

أمّا الأهواء فتُقسم الى شهوانيّة وغضبيّة فيُستعان بنعمة الله على كِفاح القوّة الشهوانيّة بسِلاح القوّة الغضبيّة وهي التي إذا راضَها العقلِ تحوَّلت الى أنفة وإباء وعزم وغَيرة وصبر وقناعة وشجاعة ونَجدة ومُروءة وعِزة نفس وعلوّ همّة وهذا ما حداني على أن أقول : «والهوى يقرعُ الهوى» أي انَّ القوّة الغضبيّة تقرَع القوّة الشهوانيّة فتقرِعها وتخضِد شوكتها وتقمعها فتصير الى محبةٍ لله والقريب وشفقةٍ على المساكين البائسين والى عِفّةٍ ورأفةٍ باليتيم والغريب ورِفقٍ بذوي الضرّاء المُعسِرين المُعوِزين

وأزيد على ذلك جميعه متخطّيًا من النظام الطبيعيّ الى النظام الفائق الطبيعة فأقول ما قالهُ القِدّيس مكسيموس في كتاب المحبّة : «إذا كان العقل مع الله تطهُر القوّة الشهوانيّة وتقدُس بالعِشق الإلهيّ وتُستمال القوّة الغضبيّة الى المحبّة الإلهيّة فتهدأ والعقل يثبُت على تلك الحال السَعيدة منتقلاً من الأرضيّات الى السماويّات وحينئذٍ فيكون كلّه مستنيرًا حتى يحاكي لألاؤه سنى شِهابٍ ثاقب»

فهذه بعض الفضائل الطبيعيّة والفائقة الطبيعة ولمّا رأيتُني عاطلاً من حُلاها دعوتُ نفسي الى التزيُّن بها فعارضتُ الناظم القائل : «فحيَّ على قُربى خِلالي الجميلةِ» وناجيتُها قائلاً : «فحيَّ على قُربى الخِلالِ الجميلةِ» وبالله المُستعان

(١) قال الجرجانيّ في التعريفات : «الشوق نِزاع القلب الى لِقاء المحبوب» وسُئل بعضُ العلماء : ما الفرق بين الشوق والاشتياق فقال : الشوق يسكُن باللقاء

فرُحتُ كئيبًا حائرَ اللبِّ ضائري «تولَّ بحظرٍ لا تجلَّ بحضرةٍ[1]»

«وأفرطَ بي ضرٌّ تلاشت لمسَّه» أمانيَّ في «كشفٍ[2]» قُبيلَ منيَّتي

وإنْ شئتُ كتمانَ المضرَّةِ صدَّت «أحاديثُ نفسٍ بالمدامعِ نُمَّت»

«وما ردَّ وجهي عن سبيلكَ هولُ ما» تصدَّى لقربي من حجابٍ ومنعة

فأمسيتُ ربِّي ناسيًا لعذابِ ما «لقيتُ ولا ضرَّاءُ في ذاك مسَّت[3]»

والاشتياق لا يسكُن باللقاء بل يزيد ويتضاعف

وقال في التعريفات: «الفناء عند أهل السلوك سقوطُ الأوصاف المذمومة كما أنَّ البقاء وجودُ الأوصاف المحمودة والفناء فناءان أحدهما ما ذكرنا وهو بكثرة الرياضة والثاني عدم الإحساس بعالَم المُلك وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومُشاهدَة الحقّ»

(١) قال الناظم:

وما بين شوقٍ واشتياقٍ فنيتُ في تولٍّ بحظرٍ أو تجلٍّ بحضرةِ

أي صرتُ فانيًا في حالةٍ هي بين شوق حال تولّيك عنّي بالمنع عن حضرتك وبين اشتياق حال تجلّيك لي بحضرةٍ منك أمّا هذا العاجز فإذ كان «الكشف» قد امتنع عليه قال: «تولَّ بحظرٍ لا تجلَّ بحضرةٍ»

(٢) قال في التعريفات: «الكشف في اللغة رفع الحجاب وفي الاصطلاح هو الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبيّة»

(٣) المسّ الإصابة وأكثر استعماله في إصابة الشيطان بضرّ أي ما صرف قلبي عن طريق محبّتك تخويف ما لقيتُه من ملامة الشيطان ولا شدّة مسّتني في ما لقيت على أنّ إبليس أخزاه الله يلوم السالك المجتهد على اجتهاده ويغريه

«فحلَّيتَ لي البَلْوى[١] فخلَّيتَ بينَها وبيني فأَضحتْ شاغلي بعدَ عُطْلةٍ[٢]
وحالتْ غَداةَ السعدِ بينَ رَغادتي وبيني فكانتْ منكَ أَجملَ حِلْيةِ[٣]»

بمتابعة الشهوات واللذّات كما أغوى آدم وحوّاء وحملهما على أكل ثمر الشجرة التي نهاهما ربُّهما عن أن يأ كُلا منها ولله درُّ «صائغ الدُرَر» إذ قال :

فيكَ للشهوةِ غيمٌ حاجبٌ أنوارَ عقلِكْ
فيكَ للمرأةِ جمرٌ لافحٌ أنوارَ فضلِكْ

(١) البَلْوى أَلذُّ من الحَلْوى في ذوق المُحبّ الصادق لأنَّ البلايا نِعَم باطنة والنِعمة الباطنة تُزدرَى في جنبها النَعمة الظاهرة لدى العارفين القانتين

(٢) في هذا البيت وما يليه من الأبيات إشارة من طرَفٍ خفيّ الى فقدي السيّد السند عمّي الحبر العظيم البطريرك جرجس الفريد المآثر المخلَّد الذكر رحِمهُ الله عِدادَ حسناته وقد كنتُ كاتباً لأسراره بعد عودتنا من دير الشرفة الذي فيه وُكِلت اليَّ كتابة أسرار «المجمع اللبناني السرياني» على أنّي أَلمعتُ الى ذلك في كتاب «مناجاة الأرواح» بقولي :

ياعينُ سحًّا ولا شحًّا فإنْ نشِفتْ لآلي ويواقيتُ الدِمـا نُزِفتْ
فحسبُنا مهجةٌ تبقى ولو وجفتْ يا حبذا أزمنٌ في ظلِّهم سلفتْ
ما كانَ أَقصرَها عمرًا وأحلاها

ميقاتُ سرٍّ تولَّيناهُ قد عبرتْ خُلساتهُ وهيَ فردوسٌ وإنْ قصُرتْ
ونفسُنا قدرَها يا صاحِ قد قدَرتْ أَوقاتُ أُنسٍ قضيناها فما ذُكِرتْ
إلاَّ وقطَّعَ قلبَ الصبِّ ذكراها

(٣) قال مار أفرام شفيع البيعة السُريانيّة : «طوبى لمن أيقن أنَّ الراحة

«ولم أُحكِ في حُبّيكَ حالي تبرُّماً» ولا جزَعاً من خيبتي وبليّتي[١]

وما شرحُها إلاّ انشراحاً وما اللغا «بها لاضطرابٍ بل لتنفيسِ كُربتي[٢]»

«ويحسُنُ إظهارُ التجلّدِ للعدى[٣]» لئلاّ يَعودوا بينَ لاحٍ ومُشمِت

الحقيقيّة في السماء وأنّ القلق المتواصل على الأرض واستطاع على مثال المسيح أن يلازم الهدوء بين تلاطم الأمواج» بعونه عزّ وجلّ

(١) قال صاحب كتاب الاقتداء بالمسيح: «يجب صرف العناية الى مُضادّة الأهواء واستفراغ الجهد في إماتة الجسد وإكراهه على الخضوع للروح حتّى يكون مستعدّاً لكلّ طارئة ويألف العفّة والقناعة ويُسَرّ بالاشياء البسيطة ولا يجزع من أيّ مكروهٍ يحلّ به»

(٢) أي لم أحكِ حالي لأجل سآمتي وتبرُّمي بسبب اضطرابٍ في المحبّة بل لأنّي بمناجاتك أفرّج همّي وأنفّس غمّي ولا يكون تبرُّم المُحبّ بالشدائد إلاّ بسبب اضطرابه في المحبّة وضعف عزيمته على الثبات فيها وما أبدعَ قولَ الصائغ:

ما أنا في هواكَ بالمُرتابِ يا مليحاً هواهُ عينُ الصوابِ

قد تملّكتَ مُهجتي وحياتي ومماتي وكلَّ ما لي وما بي

لذَّ لي في هواكَ تعذيبُ قلبي ورأيتُ الهَنا بذاكَ العذابِ

ليسَ يبدو جمالُ وجهكَ إلاّ لقلوبٍ صفتْ منَ الإرتيابِ

أيُّها الغوثُ في المَضيقِ ويامَنْ يَهَبُ العونَ في الأمورِ الصِعابِ

(٣) رحِمَ اللهُ القائل:

عِدايَ لهمْ فضلٌ عليَّ ومِنّةٌ فلا أذهبَ الرحمنُ عنّي الأعاديا

همُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتُها وهمْ نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

ويجملُ بي الصبرُ الجميلُ على القضى[1] «ويقبحُ غيرُ العجزِ عِندَ الأحبةِ[2]»

وقلتُ لأمرٍ ما :

ألا إن لامني نفرٌ ملاما وغلَّظَ لُسْنُهم فيَّ الكلاما

أقولُ لهمْ رُوَيدَكمُ على ما تعيبوني أعُذّالي على ما

أفي الدُّنيا فتًى بلغَ التماما وأنَّى تعدمُ الحسناءُ ذاما

على أنّي امرؤٌ يأبى الخصاما ويؤثرُ ما استتبَّ لهُ السلاما

وتفدي نفسهُ القومَ الكراما ويكرهُ طبعهُ الرهطَ اللئاما

ويبذلُ مهجةً عملاً على ما يعززُ أمّةً فاقتْ مقاما

وليسَ بضائري فقدٌ إذا ما وردتُ لخيرِ طائفتي الحماما

فاليومَ تلميح وغداً تصريح وإنَّ غداً لناظرهِ قريب :

كتابي لا أُحمِّلهُ أُمورًا يَشيبُ لها السميعُ وإنْ صغيرا

ولـكنّي أقولُ إذا تصدّتْ إلٰهي يسّرِ الأمرَ العسيرا

(١) إنَّ الممدود إذا قُصِر يلزم الرسمَ بالألف ولو كانَ من ذوات الياء كالقضا مقصورًا عن القضاء بالمدّ ولـكنْ لا حاجةَ بنا الى قصر الممدود إذا وردَ الحرف ممدودًا ومقصورًا على حدٍّ سواء بحسب السماع من العرب كالبُكاء والبُكى والقضاء والقضى وهلمَّ جرًّا

(٢) أي لا يحسُن إظهار التجلُّد والصبر على صدمات المِحَن مُطلقًا بل يحسُن للأعادي وأمَّا عند الأحبةّ فلا يحسُن إلاَّ العجز لأنّ إظهار التجلُّد لديهم قبيحٌ جدًّا قال أبو ذُؤَيب الهُذَلي :

وتجلُّدي للشامتينَ أُريهمِ أنّي لريْبِ الدهرِ لا أتضعضعُ

«وما حلّ بي من محنةٍ فهوَ منحةٌ» شددتَ بها أزري وأعليتَ همّتي
فما ضعضعتْ نفسي لأخطارِ شدّةٍ «وقد سلمتْ من حلّ عقدِ عزيمتي»
فما بثّها شكوى ولا لهجي بها هجاءٌ وفي شكرانها صدقُ لهجتي [١]
عليها ثنائي ما حييتُ وحمدُها لديّ غدا حقًّا أجلّ فريضةٍ [٢]

الفصل الثالث

في الاجتزاء عن العِلم اللّدُنّي بالعِلم الاكتسابي [٣]

«وعُنوانُ شأني ما أُبثّك بعضَهُ» ومَن لي بأنْ آتي على كلّ قصّتي
فما قلتُهُ سهلٌ عليّ بيانُهُ «وما تحتَهُ إظهارُهُ فوقَ قُدرتي»
«أشرتُ بما تعطي العبارةُ والذي» يفوقُ بياني جئتُ عنهُ بلمحةِ

---

(١) في هذا البيت أُلممتُ بقول الناظم :

وكلُّ أذىً في الحبّ منكِ إذا بدا جعلتُ لهُ شكري مكانَ شكيّتي
نعمْ وتباريحُ الصبابةِ إنْ عدتْ عليّ منَ النعماءِ في الحبّ عُدّتِ
ومنكِ شقائي بل بلائيَ مِنّةٌ وفيكِ لِباسُ البؤسِ أسبغُ نعمةِ

(٢) قال أبو العتاهية :

لكَ الحمدُ يا مولايَ يا خالقَ الورى كثيرًا على ما ساءَ نفسي وسرّها

(٣) العِلم هو «حصول صورة الشيء في العقل» وينقسم الى قسمين قديم وحادث فالقديم هو العِلم القائم بذاته تعالى ولا يُشبهُ بالعلوم المُحدثة

إلى شرحِهِ ألمعتُ مختصِرًا وما «تغطّى فقد أوضحتُهُ بلطيفةِ»
«وتلمحُ منها ما تخطّيتُ ذكرَهُ» وما قد جرى عنهُ القريحةُ كلّتِ
فلم أستنِدْ إلاّ إلى خيرِ نُكتةٍ «ولم أعتمدْ إلاّ على خيرِ مُلحةٍ[1]»

للعِباد وقد قلتُ في «حكاية حال» بها ألمعتُ الى أسامي العلوم:

أنتَ ربّي ومولِي وعِمادي ولدى المُعضِلاتِ نورُ رَشادي
عِلمُكَ الجمُّ دائمٌ وقديمٌ وعلومي حديثةٌ للنَفادِ

والعِلم الحادث ينقسم الى قسمين لَدُنيّ واكتسابيّ وقد تقدَّم التعريف بالعِلم اللدُنيّ أمّا الاكتسابيّ فهو العِلم الذي يحصُل بالكسب كالنظر في المقدّمات في الاستدلاليّات والإصغاء وتقليب الحدَقة ونحو ذلك في الحِسّيّات والملاحظة والامتحان والاستقراء في المجرَّبات وهلمَّ جرًّا ويقابلهُ العِلم البديهيّ أو الضَروريّ وهو ما لا يحتاج الى تقديم مقدَّمة كالعِلم بأنَّ الكلّ أعظم من الجزء والعلم الاكتسابيّ أو الاستدلاليّ ما يحتاج الى تقديم مقدَّمة كالعِلم بثبوت الصانع على أنَّ المتكلّمين المحقّقين شحَنوا علم التوحيد بالبراهين العقليّة والحُجَج النقليّة مستدلّين بالأثر على المؤثّر وبالصُوَر على المصوِّر قال ابن السيّد البطَلْيوسيّ:

فهل يُوجَدُ المعلولُ من غيرِ عِلّةٍ إذا صحَّ فِكرٌ أو رأى الرُشْدَ راشِدُ

(١) المُلحة ما طابَ من الأحاديث وٱستُملِح والنُكتة المسئلة الدقيقة أُخرِجت بدِقّة نظر مِن نكتَ الأرضَ برمحه إذا أثّر فيها لتأثير الخواطر في ٱستنباطها أو لأنّها تؤثّر في النفس قبضًا أو بسطًا ويقال لها اللطيفة إذا كان تأثيرها في النفس يُكسِب ٱنبساطًا واللطيفة في ٱصطلاح المتصوِّفة كلُّ إشارة دقيقة المعنى تلوح للفهم لا تسعها العبارة وتُسمّى الرقيقة أيضًا وعلى ما جاء في التعريفات تُطلَق

« وأُمسكُ عجزًا عن أُمورٍ كثيرة » عنِ الشعرِ والأَسجاعِ والنثرِ جلَّت
يُحيطُ بها طَوْرُ الحِجى بيدَ أَنَّها « بنُطقي لن تُحصى ولو قلتُ قلَّت[١] »
«وفي الصمتِ سَمتٌ عندَهُ جاهُ مُسكةٍ» ومَنجاةُ نفسٍ من عثارٍ وزَلَّةِ
لذا الحرُّ أَمسى في إسارٍ لهُ وقد « غدا عبدَهُ مَن ظنَّهُ خيرَ مُسكتٍ[٢] »

الرقائق على علوم الطريقة والسلوك وكلّ ما بهِ يتلطَّف سرُّ العبد وتزول كثافات النفس قال الناظم :

فمن قالَ أو من طالَ أو صالَ إنَّما يُمتُّ بإمدادي لهُ برقيقةِ

(١) قال القدّيس أوغسطينوس ما مؤدّاه : « إنَّ الأفكار سِهام والنُطق سدٌّ أمامها فكثيرٌ تلك السهام يتكسَّر قبلَ أن يخرُق هذا السدّ وقلُّها ينفذه ويصلُ الى السمع »

(٢) بكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تُجلَب الجلالة فمن علامات العاقل حسنُ سَمته وطولُ صمته ومن يُسكِت نفسَه لتحقيق الإخلاص وستر الحال خيرٌ ممَّن يُسكِتها للعجز وستر عوار الجهل وإظهار الوقار قال زُهير بن أبي سُلمى :

وكائنْ ترى من صامتٍ لكَ مُعجِبٍ زِيادتهُ أو نقصهُ في التكلُّمِ

وقال أبو العلاء المعرّيّ :

إلزَمِ الصمتَ إن أردتَ نجاةً ليسَ ضَحضاحُ منطقٍ مِثلَ غمْرِ

وقال أبو العتاهية :

يخوضُ أُناسٌ في الكلامِ ليُوجزوا وللصمتُ في بعضِ الأحايينِ أوجزُ
فإن كنتَ عن أن تُحسنَ الصمتَ عاجزًا فأنتَ عنِ الإبلاغِ في القولِ أعجزُ

ومن كلام بعضِ الحكماء : «مَن نطقَ من غيرِ خيرٍ فقد لغا ومَن نظرَ في غيرِ اعتبار

وما لِيَ أبغي شرحَ حالي مفصَّلاً(١) وأنتَ لطيفٌ(٢) عالمٌ بالسريرة(٣)
على أنني لمّا يئستُ من الرؤى(٤) ولم أوتَ كشفًا في منامٍ ويقظةِ

فقد سها ومن سكت في غير فِكر فقد لها » فأخذه أبو العتاهية وعقده فقال :

الصمتُ في غيرِ فِكرةٍ سهوٌ والقولُ في غيرِ حِكمةٍ لَغوُ

وقال لقمان لولده : « يا بُنيَّ إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك » ومن أمثال العرب : « إنَّ البلاء موكَّلٌ بالمنطِق »

(١) قال البُرعيّ :

يا واسعَ اللطفِ قد قدَّمتُ معذرتي إن كانَ يغني عنِ التفصيلِ إجمالُ
جنّبني العُجبَ والشحَّ المُطاعَ ومُرْ نفسي تُخالفُ هواها فهوَ قتّالُ

(٢) اللطيف من الأسماء الحُسنى ومعناه البَرُّ بعباده المُحسن الى خلقه بإيصال المنافع اليهم برِفق ولُطف فيكون من صِفات الأفعال أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها فيكون من صِفات الذات قال أبو العتاهية :

اللهُ يعلمُ ما تُجِنُّ قلوبُنا واللهُ لا تخفى عليهِ خافيهْ

(٣) « الربُّ وازِنُ الأرواح » أمثال ١٦ : ٢ وهو « جابلُ قلوبهم جميعًا وعالمٌ بأعمالهم كلِّها » مزمور ٣٢ : ١٥ « وما من خليقةٍ مُستترةٌ أمامَهُ بل كلُّ شيءٍ عارٍ مكشوفٌ الباطِنِ لعينيهِ » عِبرانيين ٤ : ١٣ وهو « فاحِصُ الكُلى والقلوب » رؤيا ٢ : ٢٣

(٤) جمع الرؤيا وهي ما رأيته في منامك وفي كلّيّات أبي البقاء : « الرؤيا كالرؤية غير أنَّها مختصّةٌ بما يكون في النوم فرقًا بينهما » وكما أنَّ الرؤية هي شهود الصوَر الحقيقية في حال التيقُّظ كذلك الرؤيا هي شهود الصوَر الخيالية في حال الوسَن والهجوع قال ابن خلدون : « إن كانت تلك الصوَر -

وذلكَ فضلٌ منكَ تُؤْتيهِ مَن تشا　　وتُوحي الى مَن تَصطفي في البريَّةِ[١]

عمدتُ الى بحرِ العلومِ اليَقينةِ　　وغُصتُ على دُرِّ الفنونِ الدقيقةِ[٢]

متنزلةً من الروح العقليّ المُدرِك ومُلقاةً الى الخَيال فهي رؤيا وإن كانت مأخوذةً من الصُوَر التي كان الخَيال قد أودعها الحافظة منذُ اليقظة فهي أضغاث أحلام »

(١) قال شاعر القُطرَين النابغة خليل بك المَطران :

الأنبياء آنتابهمْ زمنٌ به　　لزموا التفرُّدَ عن رضًى وخيارِ

لجأُوا الى الخَلَواتِ وآحتبسوا بها　　شَظَفي المعايشِ لابِسي الأطمارِ

ومنَ الغَيابات التي أمسَوا بها　　بعثوا الهُدى كالشمسِ في الإزهارِ

(٢) لقد أنفدتُ سبعةً وعشرين حولاً في تأليف كتاب النجوى في الصِناعة والعِلم والدِين وهو سِفرٌ مُبتكَر لا اغالي إذا آدّعيتُ بأنّي لم اسبَق إليه في لُغتنا العربيّة الشريفة :

أَلّفتهُ تَبصِرةً لنفسي　　لعلّهُ يُفيدُ أبنا جِنسي

وقد طبعتُ القسم الأوّل من مقدّمته ببيروت في المطبعة الأدبيّة سنة ١٩٠٣ ونشرت فصولاً منه في الضياء الوَضّاء وفي مجلّتي الموسومة بالورقاء وبقي سائر السِفر وهو « موسوعات علوم » في دَرْج مسودّاته الى يوم طبع خاتمته هذه ولعلّ أمر تبييضه ونشره يلبث مطويًّا الى يوم النشور إلّا إذا أعدّ الله لي غيرَ هذه المؤيّدات بحولهِ تعالى وحسن تيسيره

ويُكسَر السِفر على مقدّمة وأربعة أجزاء وخاتمة فالمقدّمة والخاتمة في مُناجاة الله ويُبسَط في الأولى الموضوع وفي الثانية يُفرَغ منه والأجزاء الأربعة في مُناجاة النفس ويدور الكلام في الجزء الأوّل على العِلم الكلّيّ وفي الثاني

وخُضتُ عُبابَ العقلِ والنقلِ دائباً ولم آلُ فاستخرجتُ كلَّ فريدةٍ[١]

على الفنون وفي الثالث على المعارف وفي الرابع على الدين وقد علَّقتُ على متن «النجوى» شروحاً وحواشيَ ضافيةَ الأذيال سمَّيتُ مجموعها «الجدوى» وفيها أُناجي ثانيَ نفسي القريب الحبيب :

يا طالباً يهوى مُطالعةَ الكُتُبْ أَلعِلمُ يمٌّ زاخرٌ طامي العُبَبْ
نجوايَ منهُ قطرةٌ إنْ رُمتَها مُستجدِياً أغنتكَ عن فيضِ السُحُبْ

(١) لقد تشعَّبت العلوم لهذا العهد وتميّزت بعضها من بعض بالتفرُّع المستمرّ الذي بلغ غايةً ليس وراءها مطَّلعٌ لناظر فما كان بالأمس فرعاً من علم أصبح اليوم علماً قائماً برأسه حتّى انَّ العالم الواحد راح يقطع عمره في حلّ مسئلةٍ فرعية دقيقة على أنّي وأيمُ الله لستُ ممّن يبخس المُعاصرين أشياءهم بل أفتخر بأن أكون في عِداد الذين يقدِرونهم قدرَهم فكم «آستقرَوا» وأجادوا ودقَّقوا وأفادوا ولو رمتُ أن أشرح ما لهم من اكتشاف وآختراع لَلزِم أن لا أختِم كتاب النجوى وكلُّ ذلك قد حصلوا عليه بالمُشاهدة والتجربة وهما أساس الطريقة العلميّة الحديثة

بيدَ أنّي أراهم قد برَعوا في الجزئيّات الى حدّ أنّهم لم يعودوا يُبالون بكلّيّات الأشياء ومبادئ العلوم التي كانت أعظم سبب في التوصُّل الى هذا التقدُّم العجيب فتضاربت آراؤهم وآنتثر عِقدهم وتباين صدعهم وتفرّقوا فِرَقاً شتّى كلٌّ منها بأوضاعها مُعجَبة وبما لديها فرِحة وممّا يدعو الى الأسف الذي لا عزاء بعدَه أنَّ مُعظَمَ علماء الطبيعة في أُخريات الأيّام لا يرَون وراء مجهرهم ومِرقبهم شيئاً فيخبِطونَ خبطَ عشواء في مباحثهم عن «الحيوة» مثلاً وما كان أغناهم عن أن يتعدَّوا طورَهم ويبحثوا عمّا ليس من خصائصهم لأنَّ النظر في

« النفس » مختصّ بعلم ما وراء الطبيعة العالي المنار الذي ينبغي أن ترجع اليه سائر العلوم كبحرٍ تصبُّ فيه الأنهار وهو العلم الذي كان يقتبس منه شيوخ المعارف الحديثة الأفاضل أُريد بهم داكرت ولابنتز ونيوتن وغيرهم من الحكماء الأماثل الأُلى إليهم يُعزى آستنباط الأُصول العامّة والمبادئ الكلّية التي أدّت الى المكتشفات والمُختَرعات الباهرة العصريّة

أمّا المتأخّرون فقد جهِلوا مبادئ ذلك العلم الكلّيّ الأعلى فباءُوا بالخيبة والخِذلان فإذا كان لهم في الاكتشاف والاختراع القِدح المعلّى فهم هم المقصّرون في الغوص على دُرَر العلوم الفلسفيّة وكلٌّ منهم سِكّيت وإن كان مُجلّيًا في مضمار العلوم الطبيعيّة حتّى لقد حاولوا عبثًا أن يجعلوا « الجمادَ حيًّا »...

هذا ممّا حداني على أن أقتدي بأعلام أئمّة الدين وأحتذي على مِثال الجهابذة المحقّقين وأضع كتاب النجوى داخلاً في دَهماء ذلك السَواد واردًا هذه الشِرعة مع الوُرّاد عسى أن ترجِع علماء الطبيعة الى آحترام المبادئ الدينيّة وإعظام العلم الكلّيّ فتُعاد الحقائق الى نصابها وتُعزَز المُسبَّبات بأسبابها وينتظم في سِمط العِلَل ما عُرِف من معلولاتها وتنخرط جزئيّات العلوم في سِلك مبادئها وكلّيّاتها فتحصُل الأُلفة بين العلم الطبيعيّ والفلسفة العقليّة والدين الصحيح وهي الأُلفة التي بدونها العالَم ما آستراحَ ولن يستريح ولله درُّ سَنسِورينو الفيلسوف الإيطاليّ الشهير إذ قال: « كما أنَّ أجزاء العالم بفعل الجاذبيّة تنضمُّ بعضُها الى بعض لكي تركّب ما يُدعى « الكون » كذلك المعارف البشريّة على يد الفلسفة ترتبط بعضُها ببعض لكي تؤلّف ما يُسمّى « موسوعات العلوم »

ولا عجبَ في ذلك لأنَّ المعارف البشريّة شُوهِدت حليفةَ الفلسفة ونتيجتَها بين علماء اليونان وهم أوّل علماء الأرض على وجه التخصيص فالعلوم الطبيعيّة

كانت عِندهم في المهد وكان عِلم ما وراء الطبيعة في ذُروة المجد بل كان الحامل الأكبر على النظار في نواميس الطبيعة ومواليدها فكانت الفلسفة والحالةُ هذه امّ المكتشفات والمُخترعات وكيف لا وفي زمن أفلاطون وأرسطو وما بعده أصبحت خميلةً ممتدّة الأفنان وارفة الظلال متشعّبة الفروع من علوم وفنون لاشيء يخرج عن دائرتها من المعارف الانسانية فإنّ علمَي التاريخ والسياسة المدنيّة قد ترعرعا في حجرة الحِكمة العمليّة أو هي الفلسفة الأدبيّة والبحث عن اللغات نشأ في حجر المنطق وفلسفة الفنون الجميلة رُبّيت في حضن الحكمة النظريّة الباحثة عن الحقّ والحسن والخير المعروفة بعلم ما وراء الطبيعة وهو العلم الذي وسّع المعارف الرياضيّة التعليميّة من جبر وهندسة وما إليهما لأنّ أصلها راسخٌ على دعامة الزمان والمسافة وهكذا سائر غصون الدوحة العلميّة قد نمتْ في حديقة الفلسفة على التوالي بحسَب حاجيّات المرء وكمالياته وعليه فإنّ العلوم الطبيعيّة لذلك العهد لم تظهر إلّا كبراعيم وسروغ فتتابع على هذا النسق فنُّ الطبّ وإن كان قديمًا بقِدَم الانسان والبحث عن الجماد والنبات والحيوان وعلم الهيئة والطبيعيّات والكيمياء ودرس الجغرافيا الطبيعيّة والآثار العُلويّة وطبقات الأرض . . . وهلمّ جرًّا الى القرون الوسطى التي خدمت العِلم خِدَمًا جليلة لا يُنكرها إلّا الجاهلون ثمّ الى القرون الحديثة التي في غضونها انفصلت تلك العلوم عن أُمّها الفلسفة غامطةً إحسانها حتّى هذا العصر الأنور الذي اتّسع فيه نطاق المعارف اتساعًا يُحيّر الألباب ويقضي بالعجب العُجاب

وما فتئ المفكرون منذ نشأت العلوم يسعون في حصرها وترتيبها على نظامٍ عقليّ يُبيّن للناظر في لمحة مجالَ كلّ علم من العلوم وما بينها من العلائق والروابط حتّى تنجلي لهُ وَحدتُها مع تعدُّدها وتنوُّعها على أنّ العلماء لم يُجمعوا الى اليوم على تقسيمٍ نهائيّ وإن يكنْ ثمّ تقاسيم كثيرة فلا تزال الآراء متضاربة

في هذا الباب لأنَّ الذين أقدموا على تقسيم العلوم لم يعتمدوا اعتبارًا واحدًا رتَّبوها بموجبه بل جرى كلٌّ في تقسيمه بحسَب ما تراءى لهُ من العلاقات وما آختاره من الروابط

وهاءنذا أُورِد أربعة تقسيمات للعلوم انتقيتُها من التقاسيم التي نشرتْها مجلة الهلال الزاهرة في الجزء السابع من مجلد السنة السادسة والعشرين الصادر في شهر نيسان عام ١٩١٨ على أنَّ تلك التقسيمات لو صحَّ أن يُدمَج بعضها في بعض إذًا لَصدر منها تقسيمٌ كامل لانَّ الواحد يُتمّم نقص الآخر ولكنَّ كلاًّ منها من واد . . . قل سبحانَ من آستأثر بالكمال وحدَه

تقسيم أرسطو

إنَّ أوّل من قسَّم العلوم لَهو أرسطو الفيلسوف وقد جعلها ثلاثة أقسام أوّلها العلوم النظريّة وهي الطبيعيّات والرياضيّات وعلم ما وراء الطبيعة والثاني العلوم العمليّة وهي علم الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة المدنيّة والثالث العلوم المنطقيّة وهي البُرهان والجَدَل والخَطابة والشِعر

تقسيم باكون

ولقد قسَّم العلوم الفيلسوف باكون الانكليزيّ باعتبار قوى النفس الثلاث وهي الذاكِرة والخَيال والذِهن فمدار الذاكِرة علم التاريخ وهو طبيعيّ أو مَدَنيّ ومجال الخَيال الشعر من قَصَصيّ وتمثيليّ وعلى الذِهن قامت الفلسفة التي بحثُها إمّا أن يكون عن الله وهو علم اللاهوت وإمّا عن الكون وهو علم الطبيعة وما وراء الطبيعة وإمّا عن الانسان من حيث جِسمه أو من حيث نفسه أو من حيث علاقته ببني جِنسه

تقسيم ابن سينا

وأشهر تقسيم للعلوم عِند العرب إنّما هو تقسيم الشيخ الرئيس ابن سينا فقد أُعجِب به فلاسفة القرون الوسطى من الفرنجة ونقلوهُ الى لغاتهم وآثروه على ما لديهم

وهو يفضُل التقاسيم التي جاءت بعدَه كتقسيم باكون المشروح آنفًا وما سواه على أنَّ ذاك الفيلسوف الكبير اتباعًا لأرسطوطاليس قسَّم العلوم أو الحِكمة الى نظريّة وعمليه

فالقسم النظريّ هو الذي الغاية منه حصول الاعتقاد اليقينيّ بحال الموجودت التي لا يتعلّق وجودها بفعل الانسان ويكون المقصود حصولَ رأيٍ فقط وأمّا القسم العمليّ فليس المقصود منه حصولَ رأيٍ فقط بل حصولَ رأيٍ لأجل عمل فغايةُ النظريّ هو الحقّ وغايةُ العمليّ هو الخير

ثُمَّ قسَّم الحكمة النظريّة الى ثلاثة أقسام لأنَّ الأُمور التي تبحث فيها إمّا أن يكون وجودها وحدودها متعلّقَين بالمادّة الجسمانيّة والحركة مثلَ أجرام الفَلَك والعناصِر وهو العلم الأسفل أو الطبيعيّ وإمّا أن تكون أُمورًا وجودُها متعلّق بالمادّة والحركة وحدودُها غير متعلّقة بها مثلَ التربيع والتدوير ومثلَ العدد وخواصّه فإنّك تفهم الكُرَة من غير أن تحتاج في فهمها أنّها من خشب أو ذهب ولا تفهم مثلاً الانسان إلاّ وتحتاج الى فهم أنَّ صورته من لحمٍ وعظمٍ وهو العلم الأوسط أو الرِياضيّ وإمّا أن تكون أُمورًا لا وجودُها ولا حدودُها يفتقران الى المادّة والحركة وهو العلم الأعلى أو الإلهيّ

وقسَّم الحكمة العمليّة الى ما يختصُّ بشخص واحد أو أكثر فما يختصُّ بشخصٍ واحد هو علم الأخلاق وما هو غير خاصّ بشخص واحد إمّا أن يكون خاصًّا باجتماعٍ منزليّ وهو علم تدبير المنزل وإمّا أن يكون خاصًّا باجتماعٍ مدنيّ وهو علم السياسة المدنيّة

تقسيم ابن خلدون

أمّا ابن خلدون فقسَّم في مقدّمته العلوم الى صنفين : صنفٌ طبيعيٌّ للانسان يصِل اليه بعقله وصنفٌ نقليّ يأخذه عمّن وضعه فالأوّل هو العلوم الفلسفيّة وهي

وليسَ يُرامُ العِلمُ والجِسمُ وادِعٌ ‏ ولا بُدَّ دونَ الشهدِ من لَسعِ نَحلةٍ[١]

«ونفسٌ ترى في العلمِ أنْ لا ترى عنًا» ‏ كواردةٍ غمزًا تغصُّ بشُغبةٍ

عقولُ الأُلى باتَ الترفُّهُ شأنَهم ‏ «متى ما تصدَّتْ للمعارفِ صُدَّتِ[٢]»

التي يُمكن المرء أن يقِف عليها بطبيعة فِكره ويهتدي الى مبادئها وموضوعاتها بمداركه البشرية والثاني هو العلوم الدينيَّة والشرعيَّة وهي كلُّها مستندة الى الخبَر عن الواضع ولا مجالَ فيها للذهن إلاَّ في إلحاق الفروع من مسائلها بالاصول

وقسم العلوم الفلسفيَّة الى أربعة أقسام وهي المنطق والطبيعيّ وأجلُّ موضوعاته المواليد الثلاثة والإلهيّ أو علم ما بعدَ الطبيعة والرياضيّ أو علم المقادير ويشتمل على أربعة علوم وهي الهندسة وعلم العَدَد والموسيقى والهيئة أو علم الفَلَك ومن فروع الرياضيّ الجبر والمقابلة وعلم المساحة والمناظر والحِيَل وجرّ الأثقال وهلمَّ جرًّا

(١) قال الناظم في قصيدتهِ اللاميَّة: «ودونَ آجتناء النَحلِ ما جنتِ النَحلُ» وقال المتنبيّ:

ذَريني أَنلْ ما لا يُنالُ منَ العُلى ‏ فصعبُ العُلى في الصَعبِ والسهلُ في السهلِ

تُريدينَ لُقيانَ المَعالي رَخيصةً ‏ ولا بُدَّ دونَ الشَهدِ من إبَرِ النَحلِ

(٢) قال الناظم المتغزّل بالعزّة الإلهيّة:

ونفسٌ تَرى في الحبِّ أن لا تَرى عَنًا ‏ متى ما تصدَّتْ للصَبابةِ صُدَّتِ

وما ظَفِرتْ بالوُدِّ روحٌ مُراحةٌ ‏ ولا بالوَلا نفسٌ صفَا العيشِ ودَّتِ

وأينَ الصفا هيهاتِ من عيشِ عاشقٍ ‏ وجنّةُ عَدْنٍ بالمَكارهِ حُفَّتِ

فليتغاضَ علماء التصوُّف عن هذا التصرُّف وسواه ممّا يقتضيه سِياق الكلام ولكلٍّ مقام مقال والسلام

« وما ظفرت بالسَّبق روحٌ مُراحةٌ » ويُحمَدُ مَسرى القوم عِندَ الصَّبيحةِ[1]
ولم يَحظَ بالخَضمِ امرؤٌ قبلَ قضمةِ[2] « ولا بالعُلى نفسٌ صفا العيشِ وَدَّت[3] »

---

(١) قولهم : « عِندَ الصباحِ يَحمَدُ القومُ السُّرى » مَثَلٌ أوّل من قالهُ خالد ابن الوليد وهو يُضرَبُ لمَن يحتمل المشقّة رجاء الراحة أو لمَن تحثّه على الصبر وتوطين النفس في مُزاولة الأمر حتّى يحمَد عاقبتَه قال بلُوطَرخُس : «لا يُكلَّل في أوّل المِضمار بغار الفخر والانتصار أُولئك الغالبون في ألعابنا المقدَّسة ولكنْ بعدَ أن يكونوا قد جازوهُ مُبرّزين ولقصَب السَّبق مُحرزين »

(٢) قولهم : « يُبلَغ الخَضْم بالقَضْم » مثلٌ معناه أنّ الراحة والغِبطة تحصلان باحتمال العَناء والمشقّة لأنّ المُراد بالخضم أكل الشيء الرطب وبالقضم أكل الشيء اليابس

(٣) أضع هذه الحاشية في سبيل إجازة فعل « حظي » بهذا المعنى بسبب شيوع استعماله في مُنشآت فحول المُولَّدين والمُحدَثين بعدَ استئذان روح الشيخ ابرٰهيم اليازجي صاحب الباع الأطول في اللغة وهو الذي صدق فيه قول أبي العلاء :

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تَستطِعهُ الأوائلُ

ولو قُدِر قدرُهُ في حياته لَبعثَ لسانَ العرَب « بالفرائد الحِسان من قلائد اللسان » مُنتفِضًا من غُبار الحُوشيّ والشاذّ والمتروك والركيك والعاميّ وهل لنا مِن بعده مَن يسدُّ مَسدَّه في وضع الأسامي للمُكتشفات والمُخترعات الجديدة ويقوم مقامَه في «المجمع اللغويّ» المنشود فيا لله ولا حولَ ولا . . . وهنا أقترح على الحكومة المِصريّة السنيّة التي بها نُعلّق الآمال أن تطبع على نفقتها في مقدّمة الأعمال كتاب زميل الشيخ الدكتور بشارة زلزل الطبيب النِطاسيّ المِفضال وهو السِفر النفيس المسمّى « تنوير الأذهان في علم حيوة الحَيَوان والإنسان وتفاوت الأُمَم

«وأينَ الصفاهيهاتِ من عيشِ دارسٍ» غدا عارقًا كدًّا كحاملِ قِربةِ[١]
وأنّى تلاقي النفسُ إبّانَ راحةٍ «وجنّةُ عدنٍ بالمكارهِ حُفّتِ[٢]»
«فلا عبثٌ والخلقُ لم يُخلقوا سُدًى» ولكنّهمْ أسباطُ جدِّ الجَريرةِ[٣]
فتسديدُهمْ يَستطيعهُ مَن براهم[٤] «وإنْ لم تكنْ أفعالُهمْ بالسديدةِ»

في المدنيّة والعُمران» واللهُ بالنتيجة كفيل وهو حسبُنا ونِعمَ الوكيل

هذا وقد قاتُ لمُدافعٍ عن «لُغَةِ الجرائد» التي إنّما هي أرقى من «لُغَةِ الدواوين» في نظرِ اللغويّ المُنتقِد :

أنسيتَ عهدَ الدارجِ و «ضياء» ذاكَ العارجِ
و«بيانَ» كاتبِ عصرِنا و «طبيبَ» داءِ الفالجِ
فَوضى لأقلامٍ فشَتْ في شرقِنا المتعارِجِ
لم يَشفِنا من سقمِها إلاّ يَراعُ اليازِجي

(١) قولهم : «لقِيتُ منهُ عرَقَ القِربة» مَثَلٌ معناه : لقِيتُ منه الشِدّة أي العرَقَ الذي يسيل من حامل القِربة قال بعض الحكماء : «من التمس العِلم براحة الجسَد التمس ما لا يكون»

(٢) حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّت النار بالشهَوات أي طريق الفضيلة الضيّق يؤدّي الى النعيم وطريق الرذيلة الواسع يؤدّي الى الجحيم

(٣) أُريد بالجدّ هُنا آدم أبا البشر وبالجريرة الخطيئة الأصليّة

(٤) قال يسوع لتلاميذه : «إنّه لأسهل أن يلج الجمَل في سمّ الخِياط من أن يدخُل غنيٌّ ملكوتَ السموات فلمّا سمع التلاميذ بُهتوا جدًّا وقالوا : مَن يستطيع إذَنْ أن يخلص فنظر إليهم يسوع وقال لهم : أمّا عِند الناس فلا يُستطاع هذا وأمّا عِند الله فكلُّ شيء مُستطاع» متى ١٩ : ٢٤ و٢٥ و٢٦

الفصل الرابع

في تهذيب النفس الأمّارة بالسُّوء

وما النفسُ إلاّ حيثُ يجعلُها الفتى　　تظَلُّ لهُ مُنقادةً بشكيمةِ
فإنْ كُبِحتْ سِيقتْ وإلاّ تمرَّدتْ　　وإنْ أُطمِعتْ تاقتْ وإلاّ تسلَّتِ[1]
إذا المرْءُ لم يَغضِ الهوى قادهُ الهوى　　الى كلِّ ما فيهِ اكتسابُ مَذمَّةِ[2]

---

(١) وَرَد في كتاب «أدب الدنيا والدين» للماورديّ وفي كتاب «عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرئاسة» لابن هُذَيل هذان البيتان النفيسان:

صبَرتُ على الأيّامِ حتّى تولَّتِ　　وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرَّتِ
وما النفسُ إلاّ حيثُ يجعلُها الفتى　　فإنْ أُطمِعتْ تاقتْ وإلاّ تسلَّتِ

فراقَني ما استوعبا من المعاني وعلى الخصوص ما أوعاهُ البيت الثاني فشطَّرتهُ قالباً فاءهُ الواقعة في أوّل العجز واواً فليغفرْ لي رُصفائي الشعراء المُجيدون هذه البدعة وغيرَها من السيّئات في جنب حسَنات ذلك التشطير الصعب المُرتقى ولا سيّما وقد امتدَّ بي نفَس الكلام الى حدٍّ أخشى معهُ أن لا يطاوعَني النظام «أنا الذي أجولُ وسْطَ المعمعهْ» ولم أضعْ بين هاتين العلامتين «...» إلاّ الأبيات التي سمطّتُها من «نظم السلوك» لكي يُحيط المطالع الأديب علماً بما شطَّرتهُ وبما نظمتهُ بنفسي ووضعتُ هذا التنبيه حتّى يعرف أيضاً أنَّ ذاك البيت البليغ ليس من «التائيّة الكبرى» وعليه فلم أكتنفْهُ بتَينِك العلامتَين والله المسؤول أن يُرشدَني الى السداد في القول والعمل بلُطفهِ تعالى وحسن إلهامه

(٢) قال هِشام بن عبد الملِك بن مروان :

فشحٌّ[١] وعُجبٌ[٢] وٱحتدادٌ وشهوةٌ تجرُّ على الإنسانِ شرَّ عقوبةِ
«فلم أتَّبع مَن سوَّلت نفسهُ لهُ» فزاغت بهِ بالنزغِ عن نهجِ سُنَّةِ
وأغرتهُ بالفوضى وغرَّتهُ بالمُنى «فصارت لهُ أمَّارةً وٱستمرَّتِ[٣]»

إذا أنتَ لم تعصِ الهوى قادكَ الهوى الى كلِّ ما فيهِ عليكَ مقالُ

قال ابن المعتزّ : «لم يقلْ هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت» ولذلك ٱستعنت بهِ استحساناً لهُ وحرصاً عليه وأودعتهُ المتن بعض تصرُّفٍ دعاني ٱختلافُ القافيتَين إليه وتسهيلاً على القارئ اللبيب أنقل هنا عن «تلخيص المفتاح» للقزوينيّ معنى التضمين والاستعانة والإيداع قال : «أمّا التضمين فهو أن تُضمِّن شعرك شيئاً من شعر غيرك مع التنبيه عليه إن لم يكنْ مشهوراً عند البلغاء كقوله :

على أنّي سأُنشدُ في وَداعي أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا

ولا يضرُّ التغيير اليسير وربَّما سُمّي تضمين البيت فما زاد استعانةً وتضمين المصراع فما دونهُ إيداعا» وأمّا التسميط فقد ٱضطرب في تفسيره أصحاب المعاجم وأنا أعني به التشطير بعينه وهو أن يعمدَ الشاعر الى أبياتٍ لغيره فيضمّ الى كلّ شطرٍ منها شطراً يزيدهُ عليه صدراً لعجز وعجزاً لصدر

(١) وَرَدَ في الحديث : «ثلاثٌ مُهلِكات : شُحٌّ مُطاع وهوًى مُتَّبَع وإعجابُ المرء بنفسه»

(٢) قال ابن سيراخ ١٠ : ١٥ «الكبرياء أوّلُ الخطاء» وقال سُليمان الحكيم في سِفر الامثال ١٦ : ١٨ «قبلَ الانحطام الكبرياء وقبلَ السقوط ترفُّع الروح»

(٣) قال الناظم :

ولا تتَّبِعْ مَن سوَّلتْ نفسهُ لهُ فصارتْ لهُ أمّارةً وٱستمرَّتِ

(١) قال برزويه رأس أطبّاء فارس وهو الذي تولّى نقل « كليلة ودمنة » من كُتب الهند : « إنَّ الدنيا كالماء المِلح الذي لا يزدادُ شاربه شربًا إلاّ آزدادَ عطشًا وكالكوز من العسَل الذي في أسفله السمّ تُذاق منه حلاوةٌ عاجلة وآخره موتٌ زُعاف وكالأحلام التي يفرح بها النائم فإذا آستيقظ ذهبَ الفرح فلم أزددْ في الدنيا ولذّاتها نظرًا إلاّ ازددتُ فيها زُهدًا ومنها هربًا ووجدتُ النُسك هو الذي يُمهّد للمَعاد وهو الباب المفتوح الى النعيم المُقيم ووجدتُ الناسك قد تدبَّر فعلته بالسكينة والوقار فشكر وتواضع وقنع فآستغنى ورضي فلم يهتمّ وخلع الدنيا فنجا من الشرور ورفض الشهَوات فصار طاهرًا وآطّرح الحسد فوجبت لهُ المحبّةُ وسخت نفسهُ بكلّ شيء وآستعمل العقل فأبصر العاقبة وأمن الندامة فلم أزددْ في أمر النُسك نظرًا إلاّ آزددتُ فيه رَغبةً حتّى هممتُ بأنْ أكونَ من أهله » وفي حكمي أنَّ كلَّ أحد يُمكنه أن يكون ناسكًا في منزله وبين ظهرانَي أبناء جنسه

فآعلم أيّها القارئُ التقيُّ الحبيب حفظكَ الله وتولاّك أنَّ العابد عِندنا نحنُ المسيحيّين ينتهي الى ذُروة كمال السيرة الروحيّة بعدَ إذ يترقّى بالتدريج شيئًا فشيئًا في معارج مقامات أو حالات ثلاث أخذ عنّا طرائقها أهلُ السلوك من سائر المِلَل كما لاحَ لهم

الأُولى وهي الابتدائيّة وتُسمّى حالة التطهير فيها النفس تنقّى من أدران الذنوب بالنِعمة الربّانيّة والتوبة النَصوح وتأخُذ في الهرب من الخطيئة كبيرةً كانتْ أو صغيرة نابذةَ الونية نبذَ النواة قاذفةَ الرَخاوة قذفَ القَذاة مُمارِسةً إماتةَ الأهواء مُكبّةً على الصلوة متسلّحةً بالقربان المقدّس مُثبرةً الحرب العوان

وأطلقتُها من قيدِها تصرفُ القوى «الى كشفِ ما حُجبُ العوائدِ غطّتِ»
«فنفسِيَ كانتْ قبلُ لوّامةً متى» أُجبْها أبتْ أو آبَ آضتْ مُجيبتي

على أعدائها الجسد والعالم والشيطان بالغةً في ذلك جهيداها بعزيمةٍ لا تعرف الكلال الى أن تصل الى الحالة الثانية

وهي الوسطى وتُسمّى حالة التنوير فيها النفس بعدَ أن تكون قد تطهّرت من آثار آثامها يُنوَّر لها من العلاء وتُغمَر بعِهاد مَواهب السماء فتتقدَّم في مناهج الكمال متّبعةً خُطى ذلك القائل عن نفسه : «أنا الطَريق والحقّ والحَيوة» يوحنا ١٤ : ٦ مستنيرةً بذلك «النور الحقيقيّ الذي يُنير كلَّ إنسانٍ آتٍ الى العالم» يوحنا ١ : ٩ متأمّلةً في سيرته وآلامه الخلاصية وسيرة وأحزان أُمّه البتول التي «لاعيبَ فيها» نشيد ٤ : ٧ متنقلةً في رياض الصلاح من حديقةٍ الى أُخرى هاصرةً غصونَ الفضائل الدانية القطوف جانيةً منها ما شاءت مغتذيةً بأثمارها متحلّيةً بأزهارها مُصبحةً عروساً نقيّةً جميلةً حبيبةً الى عريسها السماويّ الذي إنّما هو ذاتُ القداسة والبهاء وإذ ذاك فتصدُق عليها أغانيُّ نشيد الأناشيد وكلّما ازدادت إيغالاً في مَهْيَع العبادة اشتدّت محبّتها لله خيرِها الأعظم وغايتها القُصوى وازدادت اقتداءً بالمسيح في طرائق سلوكها فإذا اعترضتْ في سبيلها حوادثُ مانعة وعوادٍ وازعة من تجاربَ ومصائب وغمومٍ وهمومٍ نواصب لاتُبالي بها بل تتخطّاها مُغِذّةً السير لا تلوي على شيء صاعدةً في «سُلَّم الفضائل» فارعةً جبل كمال السيرة الروحيّة الى أن تبلغ الحالةَ الثالثة

وهي الأخيرة وتُسمّى حالة الاتّحاد فيها النفس تنتهي على مثال موسى النبيّ الى «قِمّة جبل سيناء» خروج ١٩ : ١٦ و١٨ و٢٠ وحينئذٍ تعود لديها شدائد

تخالفني في السعي والمبتغى فإن «أطعها عصت أو أعصِ كانت مطيعتي»

الدنيا وغمومها كصواعق ذلك الطور وغمامه لدى الكليم فلا تكترث لها ولا تشعر بها بل تغوص تارةً في عُباب الصلوة العقليّة وتتجرّد طورًا عن القيود الجسمانية طائرةً على أجنحة النظر في الكمالات الإلهيّة مُكثرةً من قبول الأسرار بنقاء قلب واضطرام شوقٍ الى عالم الأبرار مُراوحةً بين القبض والبسط والخوف والرجاء قائمةً صابرةً في السرّاء والضرّاء ساكنةً راضيةً بما قسم الله لها من النعماء والبأساء شاكرةً لهُ تعالى على الضيق والفرج والشدّة والرخاء مُكتسبةً الأعمال التي قامت بها والمزايا التي حصلت عليها في الحالتين السابقتين نورًا ونارًا أو «رُوحًا وحيوةً» يوحنّا ٦ : ٦٤ بهما تُمسي كوكبًا روحانيًّا تنعكس عليه أشعّة «شمس البرّ» نُبوءة ملاخي ٤ : ٢ مُشركةً لهُ في ضيائها وحرارتها ووقتئذٍ تلحق ببارئها كحمامةٍ تلحق بإلفها مُرتفعةً اليه سُبحانه متّحدةً به في التأمّل المتواصل اتّحادَ محبّةٍ كاملة ليس وراءها في هذه الحيوة زيادةٌ لمستزيد

وعِند هذا الحدّ تقف النفس مطمئنّةً الى أن يَمُنَّ الله عليها بآجتلاء وجهه الكريم في دار البقاء وإذا شاء تقدّستْ أسماؤه أن يخصّها بالكرامات وهي في «وادي البكاء» يفتح عليها كما فعل بموسى النبيّ والإناء المُصطفى فتلمح في جذبها لمعةً من سناء جلاله وتحوز مُتعةً من بهاء كماله وتقتبس منه علما هو دونَ «النبوّة» وفوقَ «العلم الاكتسابيّ» يُدعى «عِلم القدّيسين» أو «عِلم الموهبة» أو «العِلم اللدُنيّ» وعلى الجُملة فإنّها تنال عذوبةً هي شَبَهٌ ضئيل يُمثّل سعادة الآخرة بعضَ التمثيل ولا يعرفها إلّا مَن أُنعِم عليه من الأولياء وهي «المَنُّ الخفيّ» رؤيا ٢ : ١٧ الذي ذاقهُ بولس الرسول والكليم وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء والله واسعٌ عليم

«فأوردتُها ما الموتُ أيسرُ بعضِهِ» ولم أخشَ مِن خوضي غِمارَ الكريهةِ

هذا ومن رام الترقي في مدارج السيرة الرُوحيّة التي جئتُ في الكلام عليها بعَرَضٍ مِن عِدّ فينبغي لهُ أن يدرُس كتاب «مَدخَلَ العِبادة» وتقضي عليه الحكمة أن لا يستبدّ بل أن يختار لهُ مُرشِدًا طويلَ الباع من أرباب التقى والفِطنة وسعة الاطّلاع يُحلِئهُ عن موارد البُطلان والخطَل ويقيهِ الارتطام في رَدَغات الطُغيان والزلَل وينهج لهُ سنَنَ الهِداية ويكفيه التسكُّع في وَعث الغَواية ويبصّرهُ «بوارقَ» الصَواب ويحذّره مزالقَ الاضطراب ويُصلِح فاسدَه وخلَله ويثقّف أوَدَه وميَله ويُعينهُ في «الحرب الروحيّة» على «أعداء الانسانيّة» وإلاّ اعتسف عن محجة السَداد واستدرجَ الى لُجَجِ الارتياب والعِناد واعتظم في هُوّة مذهب «الحلول» كما حدَث لكثيرٍ من «العابدين والعابدات» أصحاب الجهل والفُضول وهم الأُلى خبطوا في سلوكهم خبطَ عشواء وانقلب ربحهم وسعدُهم خُسرانًا وشقاء وارتدّوا فأُوهِقوا بحِبال «إبليس» المنصوبة واحترقوا بنيران «الجسَد» المشبوبة وأغرقهم «العالَم» في مياهِ «أباطيله» المصبوبة أجارَنا الله من ذلك كلّه بنعمتهِ الفعّالة وفضلهِ العظيم

فدونَكَ يا رَعاكَ الله خُلاصة عِلم السيرة الرُوحيّة التي شحَنت السماء بالقدّيسين وكانت ولن تزال أُهجُورة الزُهّاد في أسَرهم والكهنة في رعاياهم والرُهبان في أديرتهم والنسّاك في صوامعهم والسُيّاح في براريهم ولقد أتيتُ في «مقصورتي» على لَمْحةٍ من تعريفها وتاريخها وأشدتُ بذكر بُناة إساسها وصُروحها وشدَوتُ ببيان مناقبها وبثّها وتغنّيتُ بنشر محاسنها ونثّها وذمَمتُ الدُنيا وأهلِيها ورثَيتُ للمُولَع بحُطامها والراغب فيها وذلك شحذًا لغِرار الرُوح

وما نعتها حُلوَ الكرى ماسجا الدجى   «وأتعبتها كيما تكونَ مُريحَتي[١]»

الفاترة ونشدًا لضالة الرَوح النافرة ومن ثمّ فسمَّيتُها «الفُلك النُوحية أو المقصورة الرَوحية في السيرة الرُوحيّة»

والله أسأل أن يجعل عِلمي بتلك السيرة يُفيدُني العمَلَ بها وإلاَّ أُبتُ بصفقة المغبون وكنتُ في تجارتي من الخاسرين الخاسئين وعلى هذا فما أحراني أن أختِمَ الكلام بقول صاحب كتاب «الاقتداء بالمسيح» ولله درُّه من قائل: «ماذا ينفعُكَ الجِدال في غوامض الثالوث إذا كنتَ خِلوًا من التواضع الذي به تُرضي الثالوث لعمري إنَّ الأقوال السامية لا تزكّي الإنسان ولا تُوليه البرَّ بيدَ أنَّ حيوة الفضيلة هي التي تجعلهُ حبيبًا الى الله عزَّ وجلّ فلأَن يشعُرَ قلبُك بالخشوع أولى من أن تعرِف تعريف الخشوع» والسلام على من سمع فوعى

(١) نفس الإنسان واحدة وبحسب أحوالها تُسمَّى أمّارة ولوّامة ومُطمئِنّة قال صاحب التعريفات: «النفس الأمّارة هي التي تميل الى الطبيعة البدَنيّة وتأمُرُ باللذّات والشهَوات الحِسّيَّة وتجذِب القلب الى الجهة السُفليّة فهي مأوى الشرور ومنبَعُ الأخلاق الذميمة والنفس اللوّامة هي التي تنوّرت بنور القلب قدَرَ ما تنبَّهتْ به من سِنَة الغفلة فكلَّما صدرت عنها سيّئة بحكم جِبِلّتها أخذت تلوم صاحبَها وتتوب عنها والنفس المُطمئِنّة هي التي تمّ تنوُّرها بنور القلب حتّى انخلعت عن صِفاتها الذميمة وتخلّقت بالأخلاق الحميدة وزايلها الاضطراب فسكنتْ»

وقال الشارح: «إنَّ النفس في البدَن هي قهرَمانة القُوى الظاهرة والباطنة ففي مبدإ الأمر لا تهتدي الى الخير والعدل لِما جُبِلت عليه من الجهل فتكون أمّارة بالسُوء حتّى إذا غلَب عليها أمير الشرع ومُشير العقل تتقيَّد بعدَ خلْع عِذارِها بإمارة الشرع وإشارة العقل وتعود من العصيان الى الطاعة لكنّها

« فعادَتْ ومَهما حُمِّلَتهُ تَحمَّلَتْ » ه دونَ تشكٍّ مِن عناءٍ وشقوةٍ

لا تطمئنُّ اليها لِما فيها من المُنازَعة بين داعية الطبع وحكمِ الإيمان فتارةً تغلِبُ داعيةُ الطبع وتقوى جنودُ النفس فيدَعُ القلبُ مخالفتَها فتصير عاصيةً بعدَ الطاعة وتارةً يغلِبُ نورُ الإيمان وتقوى جنودُ القلب فتُخالف النفس فتعود الى الطاعة وتقبِلُ على صاحبها باللائمة في ما همّت به أو فعلته من العُصيان وتُسمّى بهذا الاعتبار لوّامة وتُنتزَع بتعهُّد نور الإيمان ومُخالفَة داعية الهوى قليلاً قليلاً من مُستقرّها السفليّ الى عالمها الأصليّ حتّى إذا اطمأنّت الى الطاعة واتّصفتْ بالصفات القلبيّة من السكينة والرِضى تُسمّى بهذا الاعتبار مُطمئِنة «يا أيّتها النفسُ المُطمئِنّة ارجِعي الى ربّكِ راضيةً مَرضيّةً» وقد قلتُ في « الفُلك النوحية » :

طوبى لراهبِ ديرِه الداري بأنَّ ه سعادةَ الإنسانِ في دارِ البقا
يبكي على فِقدانِها بتذكُّرِ الـ ه ـماضي فيقنطُ ثمّ يُنعِشهُ الرجا
فيظَلُّ بينَ نواحِهِ في لذّةٍ ه كالنازحِ الراجي المعادَ الى الحِمى
يبكي وفي عَبَراتِهِ المُغناةُ عن ه كلِّ اللذائذِ إذ بها مِلْءُ الهَنا
يبكي فيذكُرُ تلكَ «طوبى ربّنا» ه فدموعُهُ تهمي ويثلجُ في البُكى
فاعجبْ لِماءٍ كانَ من نارٍ ومن ه دمعٍ بِهِ قد أُترِعتْ كأسُ الصفا
إن لاحَ بدرُ التِمِّ أو فاحَ الشذا ه أو ناحتِ «الورقاءُ» في غُصنِ النقا
يشدو بذكرى جنّةِ الخُلدِ التي ه سَيَنالُها فالقلبُ يطفحُ بالعزا
هيَ نفسُهُ تحكي حمامةَ أيكةٍ ه تَشجى على إلفٍ بهِ شطَّ النوى
فتهيمُ في «وادي البُكاءِ» يُظِلُّها ه أجمُ الصلوةِ منَ الصباحِ الى المَسا
في الليلِ تدخلُ مُخدعًا فيه تَرا ه حُ منَ الجوى أو لا فتوغِلُ في السُرى
فكأنّها مَلَكٌ بدا ذو زُلفةٍ ه من ربِّ هاتيكَ السمواتِ العُلى

فإنْ زدتُها أَضعافَ عِبئي تقبَّلَتْـ ... «ـهُ مِنّي وإنْ خفّفتُ عنها تأذَّتْ»
«وأَذهبتُ في تهذيبها كلَّ لذّةٍ» ... وعوّضتُ من قُربِ الصحابِ بعُزلةِ[1]

(١) لقد صحَّ فيَّ قولُ الناظم :

وبِنتُ عنِ الأوطانِ هِجرانَ قاطعٍ ... مُواصلةَ الإخوانِ واخترتُ عزلتي

ولكن لم يصدُق عليَّ قولُه :

ومن دَرَجاتِ العِزِّ أمسيتُ مُخلِدًا ... الى دَرَكاتِ الذُلِّ مِن بعدِ نخوتي

فأُعارِضهُ في دارِ غُربتي وأقول بحمد الله :

ومِن دَرَكاتِ العُسرِ أمسيتُ راقيًا ... الى دَرَجاتِ اليُسرِ مِن بعدِ ضيقتي

وأمّا في وطني فحكاية حالي منذ عام ١٩٠٠ قصيدةٌ دعوتُها «نفثة مصدور» ونشرتُها في مطلع كتاب «النُخبة من أمثال فِنِلون» وهاكَ بعضَ ما قلتُ فيها :

تجدُني في حُجرتي مُصنِفًا ... مؤلِّفًا «نجوى وجدوى» تُستحَبْ
وكلُّ سِفرٍ مُسفرٍ عمّا بدا ... مُستغلِقًا في فتحهِ جلُّ الأَربْ
وإنْ تنزّهتُ ففي مدرسةٍ ... أنشأتُها حبًّا لأبناء العربْ
أكرِمْ بها مِن روضةٍ أريضةٍ ... تزهو برُمّانٍ ونخلٍ وعِنَبْ
قصدي بها إنارةٌ لمعشرٍ ... لا يقدِرون قدرَ أربابِ الأدبْ
ويبخسونَ العُلَما أشياءَهمْ ... وعِندَهمْ كلُّ الأماني في الرُتَبْ
يا حبّذا لو نوّرتْ شهباؤُنا ... وكنتُ في التنويرِ شمعاً ذا لهَبْ

وفي سنة ١٩٠٥ يومَ عيد شفيعي العظيم القدّيسِ جورجيوس أنشدتُ القصيدة التاليـة على مرأى ومسمع من صفوة علماء وأدباء وأعيان الشهباء المُسلمين والمسيحيين في ختام خطابٍ ألقيتهُ على طلَبة وطالبات المدرستَين الشهيرتَين

وأمسيتُ أُغنّي باذلاً جُهدَ طاقتي «بإبعادِها عن عادِها فاطمأنّتِ»

اللتين أسستهما باسم مكتبي «الترقي» وكان عنوانها «مظهر الفخر والصبر أو الذكر والأجر»:

قِيامي بينَ أيدي النائباتِ كمكني بينكم للتهنئاتِ
فلا يُلفى المُحيّا غيرَ طَلْقٍ غداةَ الخطبِ أو يومَ الصلاتِ
وإنْ قبضتْ على قلمٍ يميني تُريكمْ كيفَ صُنعُ المُعجزاتِ
وإنْ نهضتْ بعبءِ الفرضِ نفسي تُذلّلُ صعبهُ رغمَ العُداةِ
وإنْ كفّي جنتْ ثمرَ «الترقي» أُعدُّ لدى العُداةِ من الجُناةِ
فكمْ في ذي المدارسِ من دليلٍ يذكّركمْ شهاداتِ الثقاتِ

* * *

سحبتُ على الحوادثِ ذيلَ صبرٍ وقد جرّتْ ذيولَ السافياتِ
بهِ سكنتْ وماجرياتُ عصري تُسكّنُ بالدموعِ الجارياتِ
وإنّي عالمٌ بتصورِ باعي ولو نوّهتُ عُجْباً بالصفاتِ
بذلكَ أقتفي شعراءَ عُرْبٍ تباهَوا في الدُهورِ الماضياتِ
وقد ملأوا بهذا الفخرِ كُتْباً وليسَ مُرادُهمْ غيرَ الهِباتِ
تغاضَوا عن فِعالِ كِرامِ قومٍ أفادونا فَعالَ المكرُماتِ
سأسعى جاهدًا في أن تكونوا رِجالَ الباقياتِ الصالحاتِ
وأشكرُكمْ على هذي التهاني وشُكري بعضُ تلكَ الواجباتِ

* * *

وما لي في الختامِ سوى دُعاءٍ لربّي أن يُمحّصَ سيئاتي
وأنْ يؤتيكمُ نُجحًا وسعدًا ولنْ أنساكمُ وقتَ الصلَوةِ

«وأنفقتُ من يُسرِ القَناعةِ[1] راضياً» وعاملتُ أهلَ الوفرِ والكِبرِ بالَّتي
وأصبحتُ أَرثي للخوالفِ[2] غانياً «مِنَ العيشِ في الدُّنيا بأيسرِ بُلغةِ[3]»

وأخدِمُكم على طولِ الحياةِ لأذكرَ بينكم بعدَ الوفاةِ
فقولوا أي بَنيَّ حِيالَ قبري وذا يُغنيكمُ عن نائحاتِ
«عليكَ تحيّةُ الرحمنِ تَترى برَحماتٍ غوادٍ رائحاتِ»

(١) قال عليُّ بن أبي طالب: «المال مادّة الشهوات والقناعة مالٌ لا ينفد» فالقناعة مقدّمة الرضى كما أنَّ الوَرَع مقدّمة الزُهد ومَن ظفر بكنز القناعة وجدَ يُسرًا لا ينفد بالإنفاق منه ودخل في زُمرة الأغنياء فكلّما عنَّت لهُ حاجة يعود الى نفسهِ بالاستقراض والنفس أحقُّ بذلك من سواها كما قيل:

إذا شئتَ أنْ تستقرِضَ المالَ مُنفِقاً على شهواتِ النفسِ في زَمَنِ العُسرِ
فسَلْ نفسَكَ الإنفاقَ من كنزِ صبرِها عليكَ وإرفاقاً الى زَمَنِ اليُسرِ
فإنْ فعلتْ كنتَ الغنيَّ وإنْ أبتْ فكلُّ منوعٍ بعدَها واسعُ العُذرِ

(٢) خالفة أي أحمق أو غير نجيب لا خيرَ فيه والغاني اسم فاعل من غَنِيَ بالشيء أي اكتفى به ويأتي أيضاً بمعنى الغنيّ

(٣) قال أبو ذُؤيب الهُذَليّ:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ الى قليلٍ تقنعُ

وهذا البيت البليغ كنت قد استعنت به مُشطّرًا في قصيدةٍ عُنوانها «الدُرر والدراري» مدحتُ بها الندب الأديب والسمح النسيب الحسيب صديقي القديم أنطون أفندي أبو حمَد الدمشقيّ الأفخم أدام الله عزّه وذلك على أثر بعثهِ اليَّ برسمه الشمسيّ مشفوعاً بألوكةٍ غرّاء فيها أثنى عليَّ بما هو أهلهُ

«ولم أكُ مِمَّنْ طيشتهُ دُروسُهُ» يَروحُ مُضلاً عابثاً بالشَبيبةِ

وهاءنذا أُثبت تلكَ القصيدة برهاناً على ودّي الوثيق وتخليداً لذِكر ما لهُ قِبَلي من الأيادي البيضاء وحكايةً لحالي قبل عام ١٩٠٠ ونشراً لِما طُويت عليه من راهن الحقائق وروائع الحِكَم :

دُرَرٌ تلألأُ أم دراريُّ تطلعُ أم ذرُّ قرنٌ للغزالةِ يسطعُ

أم بدرُ بلماء بدا مُتألقاً لحنادِسِ الليل الدلامِسِ يدفعُ

أم نورُ طِرسٍ لاحَ في دُجنِ النوى فأنصاعَ غيمُ الغمِّ عني يقشعُ

هوَ أسطرٌ طلعتْ عليَّ مُطِلةً أبداً الى تِلقائِها أتطلعُ

وردتْ فأحضرتِ الجِنانَ مواردَا عذُبتْ بها آنتعش الحشا والأضلعُ

فرِحتْ بها نفسي فرُحتُ وأخمصي يطأ العِقابَ وللشواهقِ ينزعُ

بي نوَّهتْ خِلعاً كستني طوَّقتْ جيدي عقودَ مكارمٍ لا تُنزعُ

مدَّتْ بضبعي ثمَّ شدَّتْ ساعدي فضَلُعْتُ والحوباء كانتْ تظلعُ

* * *

نفسٌ عليها قد توالتْ أبؤسٌ صُمٌّ لها صُمُّ الصفا تتصدعُ

لولا معونةُ ربكَ الواقي إذَنْ زَهقتْ فأقصتها الجهاتُ الأربعُ

هذي المنازلُ كانَ عنها في غِنًى أبوا الطبيعةِ وهيَ بئسَ الأربعُ

كانا على سُرُرِ المسرَّةِ والنقا في جنَّةٍ بهجتْ فنِعمَ المرتعُ

فِردوسُ عدْنٍ فيهِ تجري أنهرٌ تسنيمُها قد طابَ منهُ المشرَعُ

ماءُ الحيوةِ وكوثرُ النُعمى بهِ أبدلتَ دُنيا لم تزلْ لكَ تفجعُ

جلَبا عليكَ بمكرِ شيطانٍ طغى هذا الشقا حتى أقضَّ المضجعُ

فطُرِدتَ من عدْنٍ الى أرضِ العنا وادي البكى حيثُ المنيَّةُ تصرعُ

ويمرحُ تيّاهًا بها خلفَ خفّةٍ «بحيثُ أستقلّتْ عقلَهُ وأستفزّتِ»
«ولم أكُ مفتونًا بعقليَ معجبًا» بما أحرزتْ «نجوايَ» مِن فضلِ رُتبةِ

* * *

دُنياكَ دُنياكَ الدنيئةُ دأبُها روغٌ فأكرِمْ بالذي يتورَّعُ
«والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها» ظمآنةٌ منها الصدى لا ينقعُ
ولوَ انّها ملكتْ جميعَ غِنَى الورى «وإذا تُردُّ الى قليلٍ تقنعُ»
لولا المَعادُ الى السماءِ لكنتُ قد عِفتُ الوجودَ وحبَّ ذاكَ المرجعُ
فهُناكَ يظهرُ كلُّ سعيٍ صالحٍ وهُناكَ بالخُلدِ السعيدِ نُمتَّعُ
فاعمَلْ على مجدٍ يدومُ ولا تكنْ مِمَّنْ بجاهٍ زائلٍ هوَ مُولَعُ
وآصبرْ على دُنياكَ مُحتَمِلاً وإنْ لم يَبقَ في قوسِ آصطبارِكَ منزعُ
بكِنانةِ الجَلَدِ آحتفظْ ولوَ انّها نفدتْ نِبالُ الصبرِ حتّى الأهزَعُ
تُمسي الصفاةُ على الحمولِ خفيفةً ويَنوءُ صُبحًا بالحصى مَن يجزعُ
كافِحْ طلائعَها بساقةِ عزمِكَ آلْـ باقي وإلّا الركنُ منكَ يُضعضعُ
سِيّانِ عِندكَ حربُها وسلامُها إن كانَ في خيرِ الجزا لكَ مطمعُ

* * *

وإذا أتتكَ مذمّةٌ من ناقصٍ في روضِ حُسنٍ منهُ طَرفٌ يرتعُ
وحَشاهُ من حسَدٍ على جمرِ الغضا شهدتْ بأنّكَ كلُّ فضلٍ تجمعُ
أمّا المدائحُ إنْ أتتكَ مِنَ الذي باتتْ ماآثرُهُ كزُهرٍ تلمعُ
وغدتْ مناقبُهُ كزهرٍ ناضرٍ في كلِّ نادٍ عرفُها يتضوّعُ
فتجيءُ شاهدةً شهادةَ عادلٍ ثَبتِ الكلامِ لهُ العصا لا تقرعُ

ولا ساحِبًا ذيلَ الفَخارِ مُنوِّهًا «بنفسيَ موقوفًا على لَبسِ غِرَّةِ[1]»
ولكنّني آتي بها مُتوسِّلاً إليكَ رجاءَ الفوزِ يومًا بجنّةِ

وتَروحُ مُرتاحَ الضميرِ مُعزَّزا بنفيسِ أنفاسٍ نَشاها يَنصعُ
وثناؤُها نفثاتُهُ كقلائدٍ بفرائدِ الدُرِّ الثمينِ تُرصَّعُ
كمديحِ أنطونَ السَّميذَعِ وهوَ مَن عن نَزْرِ مدحي شأنُهُ يترفَّعُ

*
* *

قَرمٌ عِظاميٌّ مُعَمٌّ مُخوَلٌ شَهمٌ عِصاميٌّ هُمامٌ أروعُ
نَدبٌ عَزوفٌ أريَحيٌّ أوذَعُ نَدُسٌ عَيوفٌ عَبقريٌّ ألمعُ
زجّى إليَّ اليومَ طِرسًا طرَّزتْ ديباجَهُ الموموقَ تلكَ الإصبعُ
الخطُّ منهُ راقَني والمطلعُ قد شاقَني وكذا سَباني المَقطعُ
هذا كتابٌ لو يُقاسُ بِبَدْرَةٍ آثرتُهُ بل كنتُ فيهِ أطمعُ
هزّاتُ أفراحٍ عَرَتْني عِندما عيني تَلَتْهُ وهيَ كانتْ تدمعُ
لا زالَ صاحبُهُ حليفَ رَفاهةٍ يُولي المعارِفَ كلَّ عاقٍ يبدَعُ
ويُنيلُهمْ بِشرًا بصورتِهِ التي دلَّتْ على أصلٍ وفضلٍ يبرُعُ
طِرسٌ ورسمٌ قلتُ حينَ تجلّيا دُررٌ تَلألَأُ أم دَراريُّ تطلعُ

(١) قال الناظم :

فلا تكُ مفتونًا بحُسنِكَ مُعجَبًا بنفسِكَ موقوفًا على لَبسِ غِرَّةِ
ولا تكُ مِمَّنْ طيَّشتْهُ دُروسُهُ بحيثُ آستقلَّتْ عقلَهُ وآستفزَّتِ

طاشَ الرجلُ يَطيشُ طيشًا نَزِقَ وخفَّ فهو طائشٌ وطيّاشٌ أمّا « طيَّشَ » فلم أجِدهُ في كُتُبِ اللغةِ التي عندي

وديعاً خضوعاً خاشعاً متضرّعاً   مقرّاً بعجزي عارفاً بمعرّتي[1]

الفصل الخامس

في الاستغاثة بالثالوث القدّوس والاستعانة بنور الوحي الفائق
الطبيعة على وضع «النجوى» وفي التعريف بهذا السِفر المُبتكَر

أقانيمَ لاهوتٍ وَحيدِ الطبيعةِ   «صرفتُ لكم كُلّي على يدِ حُسنكم»
تزلّفتُ «بالنجوى» إليكمْ مُباهيًا   «فضاعفْ لي إحسانُكمْ كلَّ وَصلةٍ[2]»
وأنتمْ عِظامٌ مِن لَدنكمْ تَجلّتي   «ولِمْ لا أُباهي كلَّ مَن يدّعي العُلَى»

---

(١) قال الإمام الغزاليّ في كتابه «أيّها الولد» : كم من ليالٍ أحييتها بتكرارِ العِلم ومُطالعة الكُتُب وحرّمتَ على نفسك النوم لا أعلم ما كانَ الباعثُ فيه فإن كانتْ نيّتُك غرضَ الدنيا وجذبَ حُطامها وتحصيلَ مناصبها ومُباهاةَ الأقران والأمثال فويلٌ لكَ ثمَّ ويلٌ لك وإن كانَ قصدُكَ فيه إحياءَ شريعة الله وتهذيبَ أخلاقك وكسرَ النفس الأمّارة بالسُّوء فطوبى لكَ ثمَّ طوبى لك ولقد صدَقَ مَن قال :

سَهَرُ العيونِ لغيرِ وجهِكَ ضائعٌ   وبُكاؤهنَّ لغيرِ فقدِكَ باطِلُ

(٢) قال الناظم :

صَرَفتُ لها كُلّي على يدِ حُسنِها   فضاعفَ لي إحسانُها كلَّ وَصلةِ
ولِمْ لا أُباهي كلَّ مَن يدّعي الهوى   بها وأُناهي في افتخاري بحُظوةِ

«أُناهي» أي أبلغ النهاية أو أُغالِب في النهاية بيدَ أنّي لم أرَهُ في كتب اللغة التي بين يديّ أمّا «وَصلة» فهي اسم مرّة مِن وَصَلهُ بمعنى أعطاه وأُخالف

ومالِيَ لا أُزهى سُمُوًّا وعِزَّةً «بكم وأُناهي في افتخاري بحُظوةِ»
«وقد نِلتُ منكم فوقَ ما كُنتُ راجيًا» وفُزتُ بما قد كانَ مَدْعاةَ رفعتي
وحُزتُ بنجوايَ اعتدادًا بمجدِكم «وما لم أكنْ أمَّلتُ مِن قُربِ قُربتي»
«فثَمَّ وراءَ النقلِ عِلمٌ[1] يدِقُّ عن» مَسالكِ تحقيقي ومبلغِ دِقَّتي[2]
كبُعدِ الثريّا بُعدُ تحصيلِهِ على «مَدارِكِ غاياتِ العقولِ السليمةِ»
«تلقَّيتهُ منكم وعنكم أخذتُهُ» وكانَ كتابُ الوحيِ[3] هادي طريقتي

في ذلك الشارح الذي أثبتها بالضمّ أي «الاتّصال» إيثارًا للمعنى الأوّل وتفاديًا من تكرار القافية وقد التزمتُ عدمَ إعادتها في القصيدة كلّها

(١) وَرَدَ في الحديث : « إنّ من العِلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلاّ العلماء بالله فإذا نطقوا به لم يُنكرْهُ إلاّ أهلُ الغِرَّةِ بالله » وهو « العِلم اللَّدُنّي » الذي سبق الكلام عليه ويُسمَّى « عِلم المَوهِبة » وهو عِلمٌ يُورِّثُهُ الله لِمَن عمِلَ بما علِم وإليه الإشارة بحديث «من عمِلَ بما علِم ورَّثهُ الله عِلمَ ما لم يَعلم»

أمّا هذا العاجز فيُريد بهذه الأقوال وما يليها لا «العِلمَ اللَّدُنّي» الذي امتنعَ عليه بل العِلم المُكتسَب بنور الوحي الفائق الطبيعة المُقتبَس من كُتُب العهدَين العتيق والجديد ومن المجامع المسكونيَّة ومن تعليم آباء الكنيسة وأحبارها الأعظمين وعلمائها اللاهوتيين المحقّقين من مِثل الأُستاذ المَلَكيّ القِدّيس توما الأكوينيّ...والله المُرشِد الى حسن المَصير وهو نِعمَ الهادي ونِعمَ النصير

(٢) قال في التعريفات : « التحقيق إثبات المسئلة بدليلها والتدقيق إثباتُها بدليلٍ دقَّ طريقهُ لناظريه » فالمدقّق أعلى رتبةً من المحقّق

(٣) قال الشارح ما مُحصَّله : «الوحيُ إشارةُ الحقّ سبحانَه الى حقائق الغيوب

«ونفسيَ كانتْ من عطاكمْ ممِدّتي[1]» ومُرشدِيَ المِقدامَ في الغَوْرِ والرُبى
بالخَليقةِ رافِقٌ رؤوفٌ لأَنتَ فيا مُبدِعي المُبدي المُعيدَ جِبلّتي

والمُوحى به على ضربين بديهيّ وكسبيّ فالبديهيّ ما تلقّتهُ النفس من الوحي وأخذتْه عن حضرة الربوبية مُشافهةً عِند كشف الحجاب والكسبيّ ما تلقّته بالدرس والتعلّم من أعلام الرُواة والنَقلة الثِقات على أنّ الله يُنبِئُ الأنبياء بطريق الوحي والأولياء بطريق الإلهام وهو عِلمٌ يقذِفهُ تعالى في القلب ويُنبئُ العقلاء بطريق الفِطنة أو الحَدْس وهو أدنى مراتب الكشف ويُعرَف بسرعة انتقال الذهن من المبادئ الى المطالب بحيث يكون حصولهما معاً أمّا الوحي فلا يكون إلاّ عِند كشف الحجاب وهو قِسمان وحيٌ مُشافهة من غير واسطة ووحيُ مُراسلة بواسطة إرسال المَلَك وأمّا الإلهام فيكون من وراء حجاب وكذا الإنباء بطريق الفِطنة أو الحَدْس بيدَ أنّ حجاب الفَطِن أو المُحدَّث غليظ لا يتراءى لهُ من ورائه شيءٌ وحجاب المُلهَم رقيق يَستشِفُّ من ورائه نورَ اليقين وهو نوعٌ من الوحي «وما كان لبَشَرٍ أن يكلّمَهُ الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسِلَ رَسولاً فيُوحي بإذنه ما يشاء»

(١) قال الناظم :

تلقَّيتُهُ منّي وعنّي أخذتُهُ ونفسيَ كانتْ مِن عَطائي مُمِدّتي

ألا فاقرأ يا صاح هذا البيت الغريب المعنى ولا تقضيَنَّ منهُ العَجَب فإنَّك لَمُلفٍ في «التائية الكُبرى» من مِثله أبياتاً كثيرةً تُلمِع الى مذهب «الحلول» إلماعا بل تكاد توقِع هُويّة صاحبها في هُوّته إيقاعا وإن تبرّأ منهُ بقولهِ :

ولي من أتمّ الرُؤيتَينِ إشارةٌ تُنزِّهُ عن رأيِ الحُلولِ عقيدَتي

فتبصَّرْ وتدبَّرْ

لقد صُنتني في مَطلَبي وعضَدتَني «وأعلَيتَ مقداري وأغلَيتَ قيمتي[1]»
وآتيتَني فتحاً بهِ النفسُ قد سَمتْ الى حقِّكَ الوضّاحِ مصباحِ فكرتي
فضاءتْ على عقلي أشعّةُ شمسه وقادتْ خُطاهُ في ظلامِ الرويّةِ
فسارَ على أضوائها سيرَ مُجتَدٍ وأودعَ «جدواهُ» بطونَ المجلّةِ
نعمْ وبها أُجزِئتُ عن سِنةِ الكرى وعن كلِّ رؤيا بالخَيالِ ألمّتِ[2]

---

(١) هذا تضمين لعجز بيت الناظم القائل :

فإنْ صحَّ هذا الفألُ منكِ رفعتني وأعلَيتِ مِقداري وأغلَيتِ قيمتي

(٢) قال ابن خلدون : « الرؤيا مدركٌ من مدارك الغيب وفي الحديث : الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة وأمّا السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أنّ الروح العاقل من الانسان مُدرِكٌ لجميع ما في عالم الأمر بذاته إذ حقيقتهُ عينُ الإدراك وإنّما يمنعهُ من أن يعقِلَ المدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواهُ وحواسّه فلو خلا من هذا الحجاب وتجرّد عنهُ لَرجَعَ الى حقيقته فيعقِلَ كلَّ مدرك فإذا تجرّد عن بعضها خفّت شواغله فلا بدّ لهُ من إدراك لمحةٍ من عالمهِ بقدر ما تجرّد لهُ وهو في حالة النوم وقد خفّت شواغل الحسّ الظاهر كلُّها مستعدٌّ لقَبول ما هُنالك من المدارك وإذا أدرك ما يُدرِك من عالمِه رجَعَ الى بدنهِ إذ هو ما دام في بدنه جسمانيٌّ لا يُمكنهُ التصرُّف إلاّ بالمدارك الجسمانيّة والمدارك الجسمانيّة للعِلم إنّما هي الدماغيّة والمتصرّف منها هو الخَيال فإنّه ينتزِع من الصُوَر المحسوسة صُوَراً خَيالية ثُمّ يدفعها الى الحافظة تحفَظها لهُ الى وقت الحاجة إليها عِند النظر والاستدلال وكذلك تُجرِّد النفس منها صُوَراً أُخرى نفسانية عقليّة فيترقّى التجريد من المحسوس الى المعقول

على أنني شِمتُ المعارفَ[1] لامحاً بروقاً حفتْ حولَ الفنونِ السنيةِ[2]

والخيال واسطة بينهما ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركهُ ألقتهُ الى الخيال فيصوّرهُ بالصورة المُناسِبة لهُ ويدفعهُ الى الحسّ المُشترِك فيراهُ النائم كأنهُ محسوس فيتنزّل المدرك من الروح العقلي الى الحسّي والخيال أيضاً واسطة هذه حقيقة الرؤيا»

(١) قلتُ في «حكاية حال» أشرتُ بها الى المعارف البشرية:

أنا ما بينَ عِلمِ غربٍ وشرقٍ جامعٌ بينَ طارفٍ وتِلادِ
من رِياضياتٍ تَروضُ نُهانا مِثلما قد تُراضُ خيلُ الطِرادِ
وأُصولٍ وهندسيٍّ بِناه جابرٍ مَرآهُ انكسارَ الفؤادِ
وفُنونٍ بديعةٍ ونظامٍ وبَيانٍ ومنطقٍ وانتقادِ
ومجالي جَلالةٍ وجَمالٍ فلَكياتٍ حِليةِ الأجيادِ
وخَبايا أرضٍ وحادثِ جوٍّ وطبيعياتٍ حِسانٍ جِيادِ
ومَوالِيدَ حيّرَ الذهنُ فيها حيَوانٍ ونابتٍ وجَمادِ
ورِكازٍ وكيمياء وطِبٍّ ونَفاعِ الأعضاء للأجسادِ
وحَيوةٍ هيَ النفوسُ وليستْ بكيانٍ مَصيرهُ للفَسادِ
كلُّ ذاكَ اللهمَّ شاركتُ فيهِ وهُنا أبغي شرحَهُ باجتهادِ

(٢) أعني الصِناعات الحرّة السبع المعروفة بالفنون الجميلة وهي البِناء والنِقاشة والرسم والحركة المُنتظِمة والموسيقى والشِعر والخَطابة ولقد تكلّمتُ عليها نظماً في الأُرجوزة المُبتكَرة المسمّاة «الكون والمعبد» وبحثتُ عنها نثراً في كتاب النجوى واقتطفتُ منهُ ما فيهِ غَناء ونشرتهُ على صفحات مجلّة الورقاء

وَوَفَّقتُ بينَ الدينِ[1] والعلمِ والحِجى[2] «ورُوحي ترقَّتْ للمبادي العليَّةِ[3]»
هُناكَ تجلَّى «الحقُّ والخيرُ واحداً بحُسنٍ[4]» بدا لي مَذهِباً كلَّ رِيبةِ

(١) ألفتُ في هذا السِفر بين العِلم الطبيعيّ والفلسفة العقليّة والدِين الصحيح وهي الأُلفة التي من دونها ما آستراح العالَم ولن يستريح وجمعت فيه بين الخَيال والعقل والوحي والفلسفة والطبيعة والكتاب والعِلم والإيمان والصِناعة والدِين وبالله المُستعان

(٢) قال شاعر النيل حافظ بك ابرٰهيم في رثاء الأُستاذ الإمام الشيخ مُحمَّد عبدُه الشهير:

وَوَفَّقتَ بينَ الدينِ والعِلمِ والحِجى فأطلعتَ نوراً من ثلاثِ جهاتِ

وقال الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبري:

وَوَفَّقتَ بينَ الشرعِ والعقلِ بعدَ ما قدِ آعتقدَ الإلفانِ أنْ لا تلاقِيا

وقال ابن رشد فيلسوف الإسلام الطائر الصيت في كتاب «فصل المَقال في ما بين الشَريعة والحِكمة من الاتّصال: «إنَّ الحِكمة هي صاحبة الشَريعة والأُخت الرَضيعة وهُما المُصطحِبتان بالطبع والمُتحابَّتان بالجوهر والغَريزة»

هذا وأنصح لكَ يا صاحِ في الختام أن تُطالع في السنة الأُولى من مجلَّة الورقاء مُلخَّص كلام الفيلسوف اللاهوتيّ الأكبر البابا لاون الثالث عشَر «في الطريقة الواجب آعتمادُها في تعليم الفلسفة بحيثُ تُراعى حرمةُ أُصول الإيمان ومقامُ العُلوم البَشَرية» وهي طريقة إمام أئمَّة النَصرانية العِظام شمس المدارس القدّيس توما الأكوينيّ والسلام

(٣) هذا وما يليه إيداع لا تسميط — راجع الحاشية الثانية من الفصل الرابع

(٤) في ذلك تلميحٌ الى موضوع «النجوى» لأنَّ الوَحدة مطمَح العِلم

الكلّيّ والجمال مطمح الفنون والحقّ مطمح المعارف والخير مطمح الدين وقد قلتُ في مفتتح السِفر :

أشرعُ في هذا كتابِ النجوى	بعونِ ربِّ العرشِ مؤتي «الجدوى»
أجزاؤهُ قلائدُ العِقيانِ	منسوقةٌ كأنجمِ الميزانِ
قِلادةٌ حسناءُ في الصِناعهْ	وكلِّ فنٍّ فائقِ السَناعهْ
وأختُها الغرّاءُ في المعارفِ	من كلِّ عِلمٍ تالدٍ وطارفِ
وثالثُ البدرينِ جزءُ الدينِ	يبحثُ عن إيمانِنا اليقينِ
وكلُّ شمسٍ مطمحُ البُدورِ	ترنو إليها لاكتسابِ النورِ
تلكَ بُدورٌ ولها شموسُ	لألاؤها من ضوئِها مقبوسُ
فالحُسنُ يوحُ أوّلِ الأقمارِ	صِناعةٍ خطيرةِ الأقدارِ
والحقُّ أصلُ فائضُ الضِياءْ	والعِلمُ منهُ قابسُ السَناءْ
والدينُ بدرٌ شمسهُ الصَلاحُ	منها بَهاهُ الرائعُ الوضّاحُ
هذهْ صِفاتٌ جمعتْها واحِدهْ	سُلطانةٌ على سِواها سائدهْ
إنْ هيَ إلاّ وحدةٌ تجِلُّ	عن كلِّ نقصانٍ بها يُخِلُّ
كائنةٌ بذاتِها منذُ الأزلْ	واجبةُ الوجودِ عِلّةُ العِللْ
تلكَ بديعُ الخلقِ ذو الجمالِ	والحقِّ والصَلاحِ والكمالِ
إلٰهُنا المُوحِّدُ الطبيعهْ	ثالوثُ قُدْسٍ ذاتهُ منيعهْ
نُزِّهَ عن مَدارِكِ العقولِ	تنزُّهاً يجِلُّ عن مَثيلِ
والمَلأُ الأعلى وسُكّانُ السما	يقدِّسونَ مَنْ على العَرْشِ استوى

وقلتُ في مطلع «الكون والمعبد» :

الدينُ والعِلمُ معَ الصِناعهْ	ثالوثُ أرضٍ شرعهُ الإطاعهْ

فصارَ وجودُ اللهِ عندِي مُثبتًا جليًّا كأرقامٍ لَدَيَّ جَليَّة[١]
ولاحتْ أقانيمُ الألوهةِ[٢] في سَما نُهايَ ولكنْ من وراءِ أكِنَّةِ

أمامَ ثالوثِ السماءِ يسجُدُ وباتّفاقِ الرأيِ كانَ يعبُدُ
فالدينُ رامَ الخيرَ والصلاحا والعِلمُ للحقِّ بغى إيضاحا
ومَقصِدُ الصِناعةِ الجمالُ في كلِّ فنٍّ سِحرهُ حلالُ
وما الجمالُ غيرُ مجلى الحقِّ والخيرِ والنِظامِ بينَ الخلقِ
فالعِلمُ فهمُ خِلقةِ الإلهِ بالرغمِ مِنْ معُطِّلٍ تيّاهِ
وما الصِناعةُ سِوى تمثيلِها لعينِ مَنْ يرغَبُ في تخييلها
لِذا الفنونُ صدرتْ عن مشهدِ جمالِ صُنعِ البارئِ المُمجَّدِ

(١) قال داكرت الفيلسوف في كتاب المِنهاج عقيبَ أنْ بسط براهينَهُ الراهنة على وجودهِ تعالى ما مُؤدّاه: «إنَّ وجود ذاك الكائن الكامل إنّما هو بيّنٌ لنا مثلما تكون بيّنةً لدينا أوضحُ القضايا الهندسيّة وعليهِ فإذا كانَ أُناس بعدَ إذ أتيتُ على هذه الأدلّة جميعِها لم يسلّموا بوجود الله والنفس فليعلموا بأنَّ سائر الأشياء التي يظنّون أنّهم مُتحققوها تُصبح في نظرهم أقلّ وضوحًا كمعرفتهم بأجرام السماء وأجسام الأرض وشعورِ كلٍّ منهم بأنّه حاصلٌ على جسدٍ وهلمَّ جرًّا» ومع آعتباري لهذا القول الساميِ الذي عقدتهُ في المتن فأنصح لك يا صاح أنْ تُراجع في ما نحنُ بصددهِ الخُلاصةَ اللاهوتيّة ق ١ مب ٢ ف ١ وهو الفصل المُعنوَن «هل وجودُ الله بيّنٌ بنفسِهِ» على أنَّ الأُستاذ الملكيّ إنّما هو حُجّةُ الفلاسفة وعُمدةُ اللاهوتيين وإليه يُستَند في المطالب العسيرة المُتناوَل

(٢) قال باكون: «علمٌ قليل يُبعد المرءَ عن الله وعلمٌ كثير يقرّبهُ اليه»

دَلّتْ عليها في فصولِ مَباحِثي «بمنقولِ أحكامٍ ومعقولِ حِكمةٍ[١]»

وأَقدمتُ طورًا ناطقًا مُتجَمجِمًا[٢] وأَحجمتُ طورًا صامتًا صمتَ مُخبتِ

فباتَ بها يا ربِّ لُبّي مُلألِئًا «وبانَ سَنَى فجري وبانتْ دُجُنّتي[٣]»

وفُهتُ بآياتٍ رَوائعَ جمّةٍ «عن الفهمِ جلّتْ بل عن الوهمِ دقّتِ[٤]»

«وثمّ أُمورٌ تمّ لي كَشفُ سِترِها» بوَعْيٍ «نَجيِّ» لا يُشانُ بغَفلةِ

ولمّا نَفيتُ «الكشفَ[٥]» عنّي لم أَقُلْ «بصحوٍ مُفيقٍ[٦] عن سِوايَ تَغطّتِ»

---

(١) قال أرسطو: «كلُّ ثلاثيٍّ كامل» وقال الشيخ اليازجي الكبير ولله دَرُّهُ من شاعرٍ عزَّ لهُ النظير:

نحنُ النصارى آلُ عيسى المُنتمي حسَبَ التأَنُّسِ للبَتولةِ مَريمِ
وهوَ الإلهُ ابنُ الإلهِ ورُوحهُ فَثلاثةٌ في واحدٍ لمْ تُقسَمِ
للآبِ لاهوتُ ابنهِ وكذا ابنهُ وكذا هما والرُوحُ تحتَ تقَنُّمِ
كالشمسِ يظهَرُ جِرمُها بشعاعِها وبحَرِّها والكلُّ شمسٌ فاعلَمِ

(٢) قال القدّيس غريغوريوس الكبير: «إنّنا إنّما ننطق بأعالي الله تجمجمًا على قدر طاقتنا»

(٣) بانَ بَيانًا وتَبيانًا ظهرَ وبانَ بَينًا وبَينونةً بعُدَ والدُجُنّةُ الظُلمة

(٤) أي ترفّعتْ عن أن تُحيط بها الأفهام بل خَفيتْ عن أن تُدرِكها الأوهام لأنّها مُقتبَسة من نور الوحي الفائق الطبيعة

(٥) راجعْ الفصل الثالث حيث قلتُ: «ولمْ أُوتَ كشفًا في منامٍ ويَقظةِ»

(٦) قال في التعريفات: «الصحو في اصطلاح المتصوّفة هو رجوع العارف الى الإحساس بعدَ الغيبة والسكر هو الغيبة بواردٍ قويّ» وقال الشارح:

«وعَنِيَ بالتلويحِ يفهمُ ذائقٌ[1]» حكيمٌ حليمٌ ذو ذكاءٍ ونَجدةِ
نزيهٌ عنِ الأَغراضِ راضٍ بلُمعةٍ «غنيٌّ عنِ التصريحِ للمُتعنِّتِ[2]»
فأَوصافُها إنْ رُمتُ تعريفَ كُنهِها بسرْدٍ كرَسْمٍ دونَ حدٍّ[3] وقسمةِ

«الصحو نقصان إذا كان قبلَ السُكر وكمال إذا كان بعدما أفاق صاحبهُ من سُكره ولذلك أضاف الناظم صحوَهُ الى مفيق»

(١) قال في التعريفات: «الذوق في معرفة الله عبارةٌ عن نورٍ عرفانيّ يقذِفهُ تعالى في قلوب أوليائه يفرِقون به بين الحقّ والباطل من دون أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره وهو أوّل مبادئ التجلّيات الإلهيّة» أمّا هذا العاجز فيُريد هُنا «بالذائق» صاحب «الذوق العقليّ» المتفنّن العبقريّ المميِّز بين الحسن والقبيح والحكيم الألمعيّ الفاصل بين الحقّ والباطل والدين التقيّ النقيّ الداعي الى الخيرِ المحذّر من مَزالق الشرّ

(٢) الفهم أخصُّ من العلم لأنَّ العِلم نفس الإدراك سواءٌ كان جليًّا أو خفيًّا والفهم إدراك خفيّ دقيق والرمز أخصُّ من الإشارة لأنَّ الإشارة إيماءٌ الى الشيء باليد أو بالعين والرمز إشارة بالعين وفي «فِقه اللُغة» للثعالبيّ هو مُختصٌّ بالشَفَة والتلويح خلاف التصريح وهو الإلماع والتلميح من بعيد أو الرمز والإشارة من طَرْفٍ خفيّ على أنَّ الرمز في السريانيّة بمعنى الإشارة باليد أو بالعين وهو من الوضع المُشترَك بين العربيّة والسريانيّة وليس بمُعرَّب عنها ولا وجودَ لهُ في العبرانية خِلافًا لما ذكر السيوطيّ نقلاً عن الواسطيّ وهو القائل في تفسيره «لا تكلّم الناس إلّا رمزًا»: الرمز تحريك الشفتين بالعبريّة — راجع آخر مقالة «التعريب» في السَنة الثانية من مجلّة الضياء الوَضّاءة

(٣) قال صاحب «البصائر النصيريّة» في علم المنطق ما مُلخَّصه: «إنَّ

«مَثاني مُناجاةٍ[١] مَعاني نَباهةٍ» مَعالي مُباراةٍ عَوالي أَسِنَّةٍ
مَجالي مُباهاةٍ غَوالي جَواهرٍ «مَغاني مُحاجاةٍ[٢] مَباني قَضيَّةٍ[٣]»
«عَقائقُ[٤] إحكامٍ دَقائقُ حِكمةٍ» عَلائقُ إلهامٍ حَدائقُ نِعمةٍ
طَرائقُ إفحامٍ فَوائقُ سُلطةٍ «حَقائقُ أَحكامٍ رَقائقُ بَسْطةٍ[٥]»

القول الشارح المُفيد للتصوُّر منهُ ما يُسمّى حدًّا ومنهُ ما يُسمّى رسماً فالحدُّ هو القول الدالّ على ماهيّة الشيء ويُركَّب من مقوّماته وهي الجنس والفصل وما أشبه ذلك كقولنا في تعريف الإنسان إنّه حيوانٌ ناطق وأمّا الرسم فهو قولٌ يُعرِّف الشيء من خواصّه ولوازمه وأعراضه كقولنا في تعريف الإنسان إنّه حيوان ضحّاك مستعدٌّ للعِلم مشّاء على قدمَيه عريضُ الأظفار بادي البَشَرة»

(١) لا يخفى على اللبيب ما في هذا القول من الرمز الى كتاب النجوى قال الشارح : «إنَّ الأسماء الحسنى لهي مَثاني مُناجاة العبد لربّه فيُناجيه بمِثل قوله : يا قابِض يا باسط يا خافض يا رافع يا مُعِزّ يا مُذِلّ»

(٢) المَغاني جمع المَغنى وهو المنزِل والمُحاجاة المُغالَبة في الحِجى أو المُباراة بالأُحجِية وهي الكلمة المُغلَقة شبه اللغز أو المُعمّى

(٣) قال في التعريفات : «القضيّة قولٌ يصِحُّ أن يُقال لقائله إنّه صادقٌ فيه أو كاذب»

(٤) العقائق جمع العقيقة وهي ما يبقى في السّحاب من شُعاع البرق وبها شُبّه السيف

(٥) البَسْطة الفضيلة وفي العِلم التوسُّع وفي الجِسم الطول والكمال والرَقائق جمع الرَقيقة وقد مرَّ بك شرحها في إحدى حواشي الفصل الثالث

الفصل السادس

في وصف كتاب النجوى وحكاية حال واضعه في غضون تأليفه

فجاءت بها «نجوايَ» ذاتَ مناهجٍ ... أَدِلَّتها آثارُ عينِ الحقيقةِ
لها نفحةٌ روحيةٌ قدسيةٌ ... بحمدكَ ربّاهُ وريّا نبوّةِ
وتُلفى عليها مسحةٌ من جلالةٍ ... ومن رونقِ الإبداعِ أجملُ حُلَّةِ
ومن صنعةِ التهذيبِ حَليٌ مُذهَّبٌ ... ومن جودةِ الإنشاءِ أفخرُ خِلعةِ
تُزَفُّ الى طلّابِها وبزفِّها ... «عرائسُ أبكارِ المعارفِ زُفَّتِ»[1]
فأذهانُهم مِنْ حقِّها في تنزُّهٍ ... «وأحداقُهم من حُسنِها في حديقةِ»
وأمّا الذي في قلبهِ مَرَضٌ فمنْ ... لظى حسَدٍ ظلَّتْ حشاهُ كشعلةِ[2]
بهِ لا أُبالي ما تجنّى وإنّني ... حمولٌ صفوحٌ مرّةً بعدَ مرّةِ
«وقد آنَ لي تفصيلُ ما قلتُ مُجملاً» ... بياناً لأفكارٍ صِحاحٍ خفيّةِ

---

(١) هذا تضمين لعجز بيت الناظم القائل :

فأصغرُ أتباعي على عينِ قلبهِ ... عرائسُ أبكارِ المعارفِ زُفَّتِ

وكذا البيت الذي يليه فيه إبداعٌ لقوله :

فأرواحُهم تصبو لمَغنى جمالِها ... وأحداقُهم من حُسنِها في حديقةِ

(٢) قال ابن الحسن التهاميّ :

إنّي لأرحمُ حاسديَّ لحرِّ ما ... ضمّتْ صدورُهمُ منَ الأوغارِ
نظروا صنيعَ اللهِ بي فعيونُهمْ ... في جنّةٍ وقلوبُهمْ في نارِ

وحُقَّ لِيَ الإفصاحُ عمَّا أُجِنُّهُ «وإجمالُ ما فصَّلتُ خَتماً لخُطبتي[١]»

«هوَ الحقُّ[٢] قد ألقى إليَّ علومَهُ» ونفسِي لم تغفُلْ وكانتْ نَجيَّتي

فأُحيي الليالي[٣] دائباً في مَباحثي «وما ركدَتْ منّي الحَواسُ بغَفوةِ»

كتابي جَليسي[٤] والبَراعُ مُنادِمي وفِكري سَميري والحَقيقةُ عُمدتي

---

(١) قال الناظم :

وقد آنَ لي تَفصيلُ ما قلتُ مُجملاً وإجمالُ ما فصَّلتُ بَسطًا لبَسْطتي

أمّا أنا فقلتُ : «ختماً لخُطبتي» بدلاً من أن أقول : «بَسطًا لبَسْطتي» مُراعاةً لمُقتضَى الحال وتخلّصاً من تكرار القافية

(٢) قال الأب بُلج الفرنسويّ في الفصل الأوّل من مؤلّفه الموسوم «بيان فلسفيّ في الدين الكاثوليكيّ» ما تعريبه : «ما الحقُّ إلاّ غايةُ كلّ شيء وفيه كلّ الخيور ولا شيء منها خارجٌ عنه من حيث هو الله وعليه فالبحث عن الحقّ إنّما هو أهمُّ الأبحاث إذ يؤدّينا الى معرفة الله وأعماله وهي المعرفة التي تنتهي إليها كلُّ الحقائق المُحيط بها العقل البشريّ وفيها يُلفي المرءُ كمالَهُ وسعادتَه»

(٣) جاء في كتاب «سِرّ الليال» لابن منظور ما نصُّه : «قال بعض الأُدباء لابنه : يا بُنيَّ اجعل نظَرك في العلم ليلاً فإنّ القلب في الصدر كالطير ينتشر بالنهار ويعود الى وَكره في الليل فهو فيه ساكنٌ ما ألقيتَ إليه من شيء وَعاه وقال آخر : في الليل تجمُّ الأذهان وتنقطع الأشغال ويصِحُّ النظَر وتؤلَّف الحكمة وتدرُّ الخواطر ويتّسع مجالُ الفِكر»

(٤) قال أبو الطيّب المتنبّي :

أعزُّ مكانٍ في الدُنى سَرْجُ سابحٍ وخيرُ جَليسٍ في الزَمانِ كتابُ

ووحيُكَ نُوري والكنيسةُ قائدي ... وثالوثُكَ القُدّوسُ غوثي وعُدَّتي

«فأصبحتُ ذا عِلمٍ بأخبارِ مَن مضى» ... بِبَحثِيَ عن تاريخِ كلِّ قَبيلةٍ

وأُنبِئتُ في تَقدي بِسِرِّ مُعاصِري ... «وأسرارِ مَن يأتي مُدلاً بِخِبْرةٍ[١]»

«وما كُنتُ أدري قبلَ يوميَ ما جرى» ... بِغابرِ أعصارٍ لأبناءِ جِلدَتي

فصِرتُ بدرسي واعتباريَ عالِماً ... «بأمسيَ أو ما سوفَ يجري بغَدوةِ[٢]»

«وما هيَ إلاّ النفسُ عِندَ اشتغالِها» ... عنِ الخَلقِ في أبحاثِها النظَريّةِ

ورَغبتِها في عِلمِها وغَنائِها ... «بعالَمِها عن مَظهَرِ البَشَريّةِ»

«تجلّتْ لها أقمارُ حقٍّ مُضيئةٌ» ... أنارتْ حِجاها في الدُروسِ العَويصةِ

وحفّتْ حَوالَيْها بلألاءِ حِكمةٍ ... «هَدَتْها الى فَهمِ المَعاني الغَريبةِ[٣]»

---

(١) «يومٌ ليومٍ يُفيضُ قولاً وليلٌ لليلٍ يُبدي عِلماً» مزمور ١٨ : ٣ قيل لعمرو بن العاص : ما العقل قال : الإصابة بالظنّ ومعرفة ما يكون بما قد كان

(٢) هذا الكلام يُناقض قولَ زُهيرِ بن أبي سُلمى :

وأعلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَهُ ... ولكنّني عن عِلمِ ما في غَدٍ عَمي

وقولَ أبي العلاءِ المعرّيّ :

خُذا الآنَ في ما نحنُ فيهِ وخلّيا ... غداً فهْوَ لم يقدَمْ وأمسِ فقد مرّا

(٣) في هذه الأبيات فضلاً عن التسميط مُعارَضةٌ للناظم في معرِضِ الجواب على قوله :

وقلْ لي مَنْ ألقى إليكَ علومَهُ ... وقد ركدَتْ منكَ الحواسُ بغفوةِ

وما كنتَ تدري قبلَ يومِكَ ما جرى ... بأمسِكَ أو ما سوفَ يجري بغدوةِ

وما طُبِعتْ فيها العُلومُ وإنّما ... بها ظَفِرتْ كَسْبًا بفضلِ السَليقةِ(١)

فأصبحتَ ذا علمٍ بأخبارِ مَن مَضى ... وأسرارِ مَن يأتي مُدِلاً بخبرةِ
أتحسَبُ مَن جاراكَ في سِنَةِ الكَرى ... سِواكَ بأنواعِ العُلومِ الجَليلةِ
وما هيَ إلاّ النفسُ عِندَ آشتغالِها ... بعالَمِها عن مظهَرِ البَشريَّةِ
تجلّتْ لها بالغيبِ في شَكلِ عالِمٍ ... هَداها الى فهمِ المَعاني الغريبةِ

---

(١) في هذا البيت والبيتَين التالِيَين مُعارَضةٌ للناظم في قولِهِ :

وقد طُبِعتْ فيها العلومُ وأُعلِمتْ ... بأسمائها قِدمًا بوحيِ الأُبوَّةِ
وجادتْ ولا آستعدادَ كسبٍ بفيضِها ... وقبلَ التهيّي للقَبولِ آستعدَّتِ

وقوله :

تنبَّهْ لنقلِ الحِسِّ للنفسِ راغبًا ... عن الدرسِ ما أبدتْ بوحيِ البَديهةِ
وما ذاكَ إلاَّ أنَّ نفسي تذكَّرتْ ... حقيقتَها من نفسِها حينَ أوحتِ
وفي عالَمِ التذكارِ للنفسِ عِلمُها آلْـ ... ـمُقدَّمُ تَستهديهِ مِنّيَ فِتيتي

وقولِه :

سُنِحتْ وَلاها يومَ لا يومَ قبلَ أنْ ... بدتْ عِندَ أخذِ العهدِ في أوَّليَّتي
فنِلتُ وَلاها لا بسمعٍ وناظرٍ ... ولا باكتسابٍ وآجتلابِ جِبِلَّةِ
وهِمتُ بها في عالَمِ الأمرِ حيثُ لا ... ظهورٌ وكانتْ نَشوتي قبلَ نشأتي

وقولِ الشهابِ السهرَورديّ :

خَلَعتْ هياكلَها بجَرعاءِ الحِمى ... وصَبَتْ لمَغناها القَديمِ تشوُّقا
وتلفَّتتْ نحوَ الديارِ فشاقَها ... ربعٌ عفتْ أطلالُهُ فتمزَّقا
وَقَفتْ تُسائلُهُ فردَّ جوابَها ... رجعُ الصدى ألاّ سبيلَ الى اللِقا

«وجادت على استعداد كسب بفيضها» وما حازت العرفان من غير أهبة

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

وقول ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك فهي ذات توجع

أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع

تبكي وقد ذكرت عهودا بالحمى بمدامع تهمي ولما تقطع

حتى إذا قرب المسير الى الحمى ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع

هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع

فهذه الأبيات التي نسج على منوالها السهروردي وابن الفارض هي من قصيدة مشهورة في النفس للشيخ الرئيس وقد ألم بها إلى ما ذهب إليه أفلاطون من أن النفس وجدت في السماء قبل اتحادها بالجسم فلما خطئت قضى الله عليها بسجن الجسد وعلى هذا فقد شاهدت في زعمه الطبيعة الإلهية قبل تجسدها وستشاهدها بعد انتقالها من هذه الدنيا وكان يقول ان النفس حيوة خالدة محجورة في حبس فان والموت ضرب من البعث فإن مات الحكيم انفتحت نفسه للحقائق السامية ورأت الله مبدعها

وذلك القول بأن النفوس وجدت قبل وجود الأجسام مردود عند الحكماء ببراهين قاطعة أخصها أن الله سبحانه لم يخلق الخلائق إلا في حالة كمالها ومن المعلوم أن كمال الانسان قائم باتحاد النفس بالجسد وناهيك أن النفوس إن كانت منذ بدء العالم فلا جرم أنها كانت متحلية بقواها العقلية عاملة بها فكيف يا ترى نسيت كل إدراكاتها السابقة ولا يرد ذلك ما أتى به

أفلاطون برهانًا على زعمه من أنَّ النفس لا تكتسب معاني الجمال والحقّ والخير والعدل بالاختبار بل تنجلي لها كأنها تتذكَّر أمرًا قديمًا على حدّ قول الناظم:

وينبيكَ عن شأني الوَليدُ وإنْ نَشا بَليدًا بإلهامٍ كوحيٍ وفِطنةِ
إذا أنَّ مِن شدِّ القِماطِ وحنَّ في نَشاطٍ الى تفريجِ إفراطِ كُربةِ
يُناغى فيُلغي كُلَّ كَلٍّ أصابهُ ويُصغي لمَن ناغاهُ كالمُتنصِّتِ
ويُنسيهِ مُرَّ الخطبِ حُلوُ خِطابهِ ويُذكِرُهُ نجوى عهودٍ قديمةِ
إذا هامَ شوقًا بالمُناغي وهمَّ أنْ يَطيرَ الى أوطانهِ الأوَّليَّةِ
يُسكَّنُ بالتحريكِ وهوَ بمهدهِ إذا ما لهُ أيدي مُربّيهِ هزَّتِ

فإنَّ هذا القول إنَّما هو مردودٌ أيضًا وتلك المعاني تُكتسَب بالافكار والتأمُّل بعد تجريد الصُوَر من العلائق المادّيَّة ونقل الجزئيّات الى كلّيّاتها حتى انَّ المذهب الصحيح في الفلسفة أنْ لا تصوُّرات غريزيَّة في الانسان بل كلُّها تحصل لهُ بطريقة الاكتساب والعقل يُوجَد في مبدإ أمرهِ مستعدًّا لقبولها كأنَّهُ «صحيفة صقيلة لم يُكتَب فيها شيء» كما شبَّههُ أرسطو تنطبع فيه الأفكار بالتدريج شيئًا فشيئًا

ولقد جاء في كُتُب أوريجنيس المَلفان ذكرُ ذلك المُعتقَد الضالّ بقِدَم النفوس وقيل انَّ بعض المُبتدِعين حرَّفوا كُتُبه والله أعلم وكان هؤلاء التابعون مذهب أفلاطون يُعلِّمون أنَّ النفوس خُلِقت في البدء ثمَّ سقطت في الخطيئة فبرأ الله العالم ليكون لها سجنًا وعِقابًا وقد حرَّمت الكنيسة هذه البِدعة في المجمع الخامس المسكونيّ سنة ٥٥٣ ولا يُحَقُّ لنا أن نجرِّد عضب القدح والطعن على أفلاطون إذ كان رجلًا وثنيًّا لم تُشرق عليه الديانة المسيحية بأنوارها القدسيَّة

اللامعة وأضواء وحيها الساطعة فكان نورُ العقل قائدَهُ الوحيد في مباحثه السامية وما آقتبسَهُ من مبادئ الأديان أو هي الفلسفة الشرقية كان عقائدَ آعتورتْ معانيَها عادياتُ الزمان وتقلُّباتُ الحِدثان فأصبحت آثارًا مُشوَّهة لعين الحقيقة لا تشفي بِلـتَها غُلةَ ذلك القلب المحترِق بحبّ الطبيعة الإلهيّة ولا تفي أدلّتُها بما كان يشرئبُّ لبّهُ الى البحث عنهُ من الحقائق الفائق إدراكها طورَ العقل البشريّ فلا لومَ عليه ولا تثريب إذا كان قد سقَط في أغلاط وغَوايات

بيدَ أنَّ الذنب كلَّ الذنب على أولئك الذين كانوا سائرين في أشعّة «شمس البرّ» وقد تسكّعوا في ديجور الأضاليل وغرامُهم بالفلسفة الإشراقيّة ثُمّ بالفلسفة المشائيّة حداهم على التهوُّر في ما يُنافي الوحي السماويّ فكان على تبّاع أفلاطون المسيحيّين أن «ينصّروا» فلسفته ويُصلحوا أغلاطها بما في الدينِ الحقّ من التعاليم الصائبة كما فعَل القِدّيس أوغسطينوس وكان كذلك على مُشايعي أرسطو أن «يعمّدوا» فلسفته وينقّوها من أدران الخطاء كما فعَلَ القِدّيس توما الأكوينيّ

وهاءنذا أُبيّن ما كان يجب عملهُ على ممثّلي فلسفة أفلاطون المسيحيّين في شأن قولهِ بقِدَم النفوس على أنَّ الكتاب المقدَّس في الفصل الأوّل من سفر التكوين يتكلّم على خِلقة الإنسان صادعًا بأنَّ النفس والجسَد صُنِعا معًا فبذلك الوحي يبطُل زعم أفلاطون وعلى هذا فكان ينبغي لتبّاعه المسيحيّين لا أن يأتوا ببِدعة تناقض الوحي الإلهيّ بل أن يأوّلوا ذاكَ القول تأويلاً مُوافقًا لهُ من غيرِ أن يضِلّوا وأنا أذكُر هُنا تأويلاً مُطابقًا للتعاليم المُنزَلة فأقول:

إنَّ زعم أفلاطون يُحاكي مُعتقَد الهنود والصينيّين والبابليّين والمِصريّين والفينيقيّين وغيرهم من الشعوب القديمة وهؤلاء كانوا يعتقدون ما آعتقدَهُ الإسرائيليّون من أنَّ الأب الأوّل طُردَ من الفردوس هو والأُمّ الاولى بسبب

جريرتهما ولكنَّ هذا المعتقد عند أهل آسيا عدا الشعب الإسرائيليّ كان ممتزجًا بأفكار شعريّة وخرافات خياليّة لا طائل فيها اختلطت به مع تمادي زمن التقليد ومصداقًا لذلك أورد ما جاء به في هذا الصدد واضع معجم المقابلة بين تعليم الإيمان الكاثوليكيّ وغيره من التعاليم الفلسفيّة والدينيّة (وهو المجلّد الثامن والثلاثون من موسوعات العلوم اللاهوتيّة التي نشرها الأب مين الفرنسويّ الشهير صاحب مكتبة الإقليرُس الجامعة) قال رحمه الله لدى كلامه على الخطيئة الأصليّة ما محصّله: «لو حاولنا أن نأتي على سرد كلّ التعاليم الوثنيّة التي لنا أن نثبت بها عقيدة الخطيئة الأصليّة إذًا لكان علينا أن نشفع بتاريخ وافٍ جميع هذه المزاعم الباطلة الناجمة عن تقليد سقطة الأبوين الأوّلين وهذا بابٌ واسعُ مجال القول فنجتزئ عنه ببيانٍ شافٍ نحقّق به أنّ الوثنيّين قد احتفظوا بهذه العقيدة الأساسيّة وإن مسخوها مسخًا على أنّ الهنود مثلاً يعتقدون أنّ النفوس مُجلاة عن وطنها وفي أثناء جلائها المشؤوم لا تزال متنقّلةً من جسمٍ الى جسم فإنّ المواليد الثلاثة من حيوانٍ ونباتٍ وجماد إنّما هي مشحونةٌ بالأرواح الساقطة من محتِدٍ شريف ووطنٍ مُنيف وهي تنزع أبدًا الى العود إليه فالعالم بأسره إنْ هو من هذا القبيل إلّا مطهرٌ رحيب» فلعلّ مُعتقَد هذه الأمم التي أخذ عنها اليونانيّون خرافاتهم حمل أفلاطون على ما ذهب إليه من أنّ النفس لمّا خطئت في السماء قضى الله عليها بسجن الجسد

وهذا التأويل الذي أتيتُ به لست بأوّل من قاله فإنّ الخطيب العصريّ الأب مُنسبراي الدومينيكيّ قال في عرض خطبته في معرفة الله بعدَ إذ سرد زعم أفلاطون ما مفادُه: «يُمكن أن يفسَّر هذا التعليم الغريب بتطبيقه على سقطة الإنسان» وقالت المجلّة الفرنسويّة الموسومة «بالكاثوليكيّة» في عددها الصادر في كانون الثاني سنة ١٨٥٦ ما تعريبُه: «لا خفاء أنّ نفسنا على رأي أفلاطون

قد شاهدت الكلمة الإلهيّة وعرفت الحقّ في حيوةٍ تقدّمت حياتها الحاضرة ثمّ حُبست عِقابًا لها على ما آثمها في جسدٍ أرضيّ مائت فأضاعت معارفَ كانت مُحرزةً لها سابقًا حتّى انّ التعلّم للإنسان إنْ هو إلاّ ذِكرى وقد قال العلاّمة اللاهوتيّ الأب لويس تومسّان: لو وضعتَ عِوضًا عن هذه القِصّة الخرافيّة الحادثة التاريخيّة الصحيحة وهي حالة بِرّ وسَعادة وحُظوة الأبوَين الأوّلين التي كانت بالجنس البشريّ حصَل في شخصَيهما عليها وفقدَها بسَبَب جريمة العِصيان إذًا لَكنتَ تلفي في زعم أفلاطون الزائغ أثرًا للتعليم المسيحيّ القويم» وما أحسنَ وأبدعَ ما قالهُ في النفس القدّيس أوغسطينوس في الفصل السادس والعشرين من كتاب «المكتبة الروحيّة» الأوّل المشتمل على تأمّلاته فهاكهُ مُعرّبًا شعرًا بقلم المترجم أثابهُ الله:

النفسُ جُلُّ سُؤالِها	في الأرضِ حلُّ عِقالِها
تبكي وتندُبُ أربعًا	فقِدتْ بسوءِ فِعالِها
ذِكرى الخَسارةِ في الشقا	زادتْ على أثقالِها
لكنْ متى وَصَلتْ الى	أوطانِها ومآلِها
نالتْ منَ الأفراحِ ما	يُربي على آمالِها
فرَحُ الجِنانِ إذا بدا	تُكفى ضَنى أهوالِها
فرَحٌ تنوءُ بوصفهِ	لُسنُ الورى بمَقالِها

وختامًا لما أنا مُثبتهُ آتي بقطعةٍ نظمتها في هذا الصَدَد وضمّنتها مطلعَ مُعلّقة آمرئ القيس ودعوتها «الذِكرى» وهي:

خليليَّ «نجوى» عهدِنا المتقادِمِ	رمَتني في موجِ الجوى المتلاطِمِ
«قِفا نبكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ»	هما اللهُ والفِردوسُ موطنُ آدمِ
يذكّرُني التقليدُ والوحيُ بالذي	جرى قِدمًا والذِكرُ شقوةُ عالمِ

الفصل السابع

في تقدمة الكتاب الى الله الموحَّد الذات المثلَّث الأقانيم والتنصل مما لعلَّهُ يُلفى فيهِ من الهفوات وإخضاعهِ لحكم الكنيسة الجامعة

فما حَصَلَتْ نفسي عليهِ بجدِّها ... وما كُلِّفتْ في وَضْعِهِ بذلَ مُهجةِ
أُقدِّمهُ مولايَ باكورةَ الجنَى ... إليكَ لَعَلِّي أَنْ أَفوزَ بزُلفةِ
فإنْ كنتُ قداً خطأتُ فالضعفُ شافعٌ ... وما جئتُ من حُسنٍ يُمحِّصُ هفوتي
وإنْ شِئتَ ربِّي أَنْ توَبِّخني على ... كتابي لِما فيهِ ترى من نقيصةِ

فأبكي على فقدِ السعادةِ نادِبًا ... وألطِمُ خدِّي قارِعًا سِنَّ نادِمِ
وتُوشِكُ نفسي أَنْ تَفيظَ تلهُّفًا ... على وَطَنِ الجدَّينِ مَجلى العَظائمِ
فيُنعِشُني رَجْوُ المَعادِ الى الحِمى ... فأسعى لكَسْبِ الأجرِ سعيَ الأكارِمِ
أُزجِّي حَياتي في المبرَّاتِ دائبًا ... رَجاءَ امتِّاعٍ بالسَّعادةِ دائمِ

هذا وليغتفرْ لي سادتي العَروضيّون السِّناد في «آدم» وإن لم يُجزْهُ الخليل وإلاَّ فليضمُّوا الدال أو ليكسِروها حاسِبين الكلمة أعجمية فلا بأسَ بالتصرُّف في لفظ الكَلِمِ الأعجمية ولا سيَّما إذا دعت إليه ضَرورة الشعر وليعلم القارئ الأديب أنَّ هذه الحاشية ملخَّصة عن مقالةٍ لي « في تأويل قصيدة ابن سينا في النفس تأويلاً يحلُّها من رِبقة الزعم الفاسد الذي بُنِيت عليه وهو قول أفلاطون بأنَّ النفوس تقدَّمت الأجسام في الوجود فلمَّا خطِئت في السَّماء قضى الله عليها بسِجن الجسَد » وقد نشرها العالم المحقق الأب لويس شيخو اليسوعيّ في السنة الثانية من مجلَّة المشرق الزاهرة عام ١٨٩٩

«تقولُ: هوى غيري قصدتَ ودونَهُ» أُنختَ مطيّاتِ الصِبى والرَجيّةِ
وأفرطتَ عسفاً في وُعوثِ المُنى وما «أقـ تَصدتَ عميّاً[1] عن سَواء مَحجّتي
«وبين يَدَي (نجواكَ) قدّمتَ زُخرُفا تَرومُ بهِ عِزّاً مراميهِ عزّتِ[2]»

(١) في مُعجمات اللغة التي عندي: «العَمِي» بوزن فَعِل ذو العمى والشارح أثبتَ «العَمِيّ» بالتشديد ولعلّ الناظم أراد «العُمَيّ» بالتصغير والله أعلم

(٢) والحقّ ماذاق كلامَ الحكما غيرُ الذي جاء أخيراً وسَما

قلتُ هـذا الرجز ذا العنجهانيّة وقد غفوتُ في ليلةٍ نابغيّة ونفسي الأمّارة بالسُوء نازعةٌ الى الفِخار على أثر تحليقها فى جوّ «النجوى» وطيَرانها على أجنحة «الابتكار» طابعةٌ على غِرار بيت أبي العلاء القائل وأعوذ من الكِبر بالله الأكبر الجبّار:

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تَستطِعْهُ الأوائلُ

وإنّي لَكذلك والنفسُ مُدوّمةٌ فى فضاء ما هُنالك إذ رأيتُ فيما يرى النائم سَحاباً عقيقيّاً وسَمِعتُ هُتافاً حفيّاً سِرّيّاً يُناديني أنِ اربَعْ على ظَلْعِك ولا تتكلّفْ ما هو فوقَ وُسعِك واتّئبْ مُتّئداً في السُلوك وإلّا فيصدُق عليك كلامُ صاحب «نظم السُلوك» أمير الشعراء المُحدَثين بلا مُعارض المُوارِد في الخواطر «لابن العبريّ» الشيخ عُمَر بن الفارض الذي كأنّما نظر إليكَ بلحظ الغَيب حيث يقول ولله درُّهُ من قارض:

وبينَ يدَي «نجواكَ» قدّمتَ زُخرُفاً تَرومُ بهِ عِزّاً مَراميهِ عزّتِ

فأجبتُ ذلكَ الهاتفَ السِرّيّ بصوتٍ متقطّعٍ جَهْوريّ: لَبّيكَ لَبّيك هاءنذا

«وفي أنفسِ الأوطارِ أمسيتَ طامِعاً»   وظَلّتَ تُضاهي فيهِ عَشْواءَ ضَلّتِ

لدَيْك ورهينُ إشارتك وبينَ يدَيْك ولكن أينَ أُمّي الحنون الرؤوم وكنتُ قد فقدتُها حديثاً وأنا بعدَ بُعدِها مغمومٌ مهموم وقد تمثّلت أمامي في ذلك الغمام الرائع بجمالها الرائق وصوتها اللطيف وكمالها البارع فأنشد وهو «يركضُ خبَبَا» و «يدُقُّ ناقوسا» جعَلَ نفسي «ورْقاء» الوَداعة بعدَ إذ حاكت بالزَهْو طاووسا :

ظِلاً بقِيتُ للنفسِ تقي   دَوْماً إنْ أنتَ بقِيتَ تقي

فخضعتُ وخشعتُ وخنعتُ وبالحقِّ صدَعت وافترصتُ هذه النُهزة وسألت ذلك الهُتاف : ماذا أُسمّي هذا «التسميط» الذي إنّما هو «خاتمة المَطاف» فقال وحبّذا المقال : «حُبُكُ الدرارئ المُرصّعة بها حَباتُكُ الدُرَر» فقلتُ بعدَ أنْ حمدتُ ذارئ البَشَر وأنا مُولَعٌ بالسجع ممّا خفَّ على السمع وسرَّ الخاطر وامتزج بالطبع : لا بل أُسمّيه «حُبُكُ الفراقِد المُرصّعة بها حَباتُكُ الفرائد» فقال : هما فرقدان والفرقد يعني معنًى آخر إذا جُمِع على فراقِد فتذكّرتُ إذ ذاك «رِسالة الغفران» و «الرِواية الإلهيّة» و «الفِردَوس الغابر» و«الفُلك النُوحية» وعلى التفيئة غابت الرؤيا وانقطع الهُتاف فاستيقظتُ وقد سكِرتُ من غيرِ ما سُلاف وما ذاكَ الظِلُّ البارق إلاّ صورة والدتي وسِمتها وما ذلك الهُتاف الشائق إلاّ لهجتُها وصوتُها وهذا ما حداني على أن أستعين «ببيت القصيد» ولا أُشطّرُه ولا أزال ما عِشتُ أُفكّرُ في ذلك الاتّفاق الغريب وأذكُرُه والسلام على مَن سلَك سواء السبيل والله حسبُنا وهو نِعمَ الهادي ونِعمَ الوكيل

وداكَ لِأَنَّ السَّعْيَ كانَ وراءَهُ ‌ ‌ «بنفسٍ تَعدَّتْ طَوْرَها فتَعدَّتِ[1]»
«ونَهْجُ سَبيلي واضِحٌ لِمَنِ اهتدى» ‌ ‌ وسارَ بنفسٍ حُرَّةٍ مُطمئِنَّةٍ
وراحَ بنورِ الوَحْيِ يسري على هُدًى ‌ ‌ «ولٰكنَّها الأهواءُ عمَّتْ فأعمتِ[2]»
«وأَينَ السُّهى[3] من أَكْمَهٍ عن مُرادِهِ» ‌ ‌ نَحا فِئَةً في الضِّلَّةِ العُمْرَ أفنتِ
فلاسِفةٌ[4] باهى بها سَفَهًا وقد ‌ ‌ «سَهَا عَمَهًا لٰكِنْ أَمانيكَ غرَّتِ»
«فقِمتَ مَقامًا حُطَّ قدرُكَ دونَهُ» ‌ ‌ وقد جَلَّ عن إِقدامِ أَزكى نَقيبةٍ

---

(١) «أوطار» جمع وَطَر وهو الحاجة والمُراد بأنفس الأوطار أعزّ المطالب و«الطَوْر» الحدّ والقدْر يُقال: عدا طَوْرَهُ أي حدَّه وجاوزَ طَوْرَهُ أي قدرهُ الذي يليق به «وتعدَّتْ» الأوَّل بمعنى جاوزتْ والثاني بمعنى ظَلَمتْ

(٢) «النهج» الطريق المستقيمة أُضيفَ الى «السَّبيل» إضافة الخاصّ الى العامّ أي طريقي المستقيمة واضحةٌ لِمَن اهتدى «وعلى الله قَصدُ السَّبيل» بالنعمة «الكافية» مرَّة و«الفعّالة» أُخرى ولٰكنَّ الأهواء أعمتكَ عن رؤية تلك الطريق و«حبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمّ»

(٣) السُّهى كوكبٌ خفيٌّ من بنات نعش الصُغرى بهِ تُمتحَن حِدَّةُ البصَر لكونهِ غايةً في الخَفاء والصِغَر

(٤) قال المُفكِّر الفرنسويّ بَسْكال في كتاب «خواطره»: «الحكيم الحقيقيّ إنَّما هو مَنْ يزدري ما يُسمّى فلسفة» وقال صاحب كتاب الاقتداء بالمسيح: «إنَّ الحِكمة العُليا هي التوق الى السماء باحتقار الدُّنيا» وقال القدّيس أوغسطينوس في «اعترافاته»: «سعدًا لِمن يعرفكَ يا الله وإن جهِلَ ما سِواكَ» وقال مار أفرام السُّريانيّ كنّارة الروح القُدُس في بعض «مَيامرِهِ»: «طوبى

أتفرعُ في قيدِ الهوى قِممَ العُلى «على قَدمٍ عن حَظِّها[1] ما تخطّت»
أُجيبُ : أنا راضٍ إلهي بما به قضاكَ ولا أنوي قضاءَ رَغيبتي[2]
«فإنْ أجنِ من غرسِ المُنى ثمرَ العَنا» وأعتضْ هوانًا عنْ فخاري وعزّتي
وإلَّمْ تنلْ «نجوايَ» عِندكَ حُظوةً «فللهِ نفسٌ في مُناها تعنّتِ»
«لكَ الحُكمُ في أمري فما شئتَ فاصنعا» فإنّيَ عبدٌ ما أُلِفُ الإباقَ بشيمتي
ولمْ أبغِ «بالنجوى» سِوى وجهِ بارئي «فلمْ تكُ إلّا فيكَ لا عنكَ رَغبتي[3]»
«ونعتِ جَلالٍ منكَ يَعذبُ دُونَهُ» مُصابي ولو كالصابِ في كلِّ جُرعةِ

لمن لم يذُقْ علقمَ حِكمةِ اليونان فتراهُ مُستعيرًا أجنحةَ الرُوحِ الملكوتية وحين إذ تُفتح في الأرض أبواب الجدال والهذَيان يُغادرها ويعرُج الى الأعالي السماويّة» ورحِمَ اللهُ مَن قال : «النظرُ الى وجه العالِمِ عِبادة وهو العالِمِ الذي إذا نظرتَ إليه ذكّركَ الآخرة ومَن كان على خِلاف ذلك فالنظر إليه فِتنة»

(١) «الحظّ» النَصيب والبَخت والجَدّ و «المحظوظ» المجدود الغير المحدود ذو السَعة في الرِزق والإقبال في الدُنيا قال الشيخ محمّد البُوصيريّ في البُرأة المعروفة بالبُردة :

ولم أرِدْ زَهرةَ الدُنيا التي قَطَفتْ يدا زُهيرٍ بما أثنى على هَرِمِ
والنفسُ كالطِفلِ إنْ تُهمِلهُ شبَّ على حُبِّ الرضاعِ وإنْ تفطِمهُ ينفطِمِ

(٢) هذا البيت ينظُرُ الى قول الناظم :

وها أنا مُستَدعٍ قضاكِ وما بهِ رِضاكِ ولا أختارُ تأخيرَ مُدّتي

(٣) «رغِبَ فيهِ» يرغَب رَغبًا ورُغبًا ورَغبةً أرادهُ بالحِرص عليهِ وأحبّهُ و «رغِبَ عنهُ» أعرض عنهُ ولم يُرِدْهُ و «الرَغبة» الأمر المرغوب فيه

ويغدو به عِزًّا صَغاري وراحةً	«عذابي وتحلو عنده لي قتلتي»
«لأنتَ مُنى قلبي وغايةُ بُغيتي»	وغايتيَ القصوى[1] ومَصدرُ «سلوتي[2]»
ومَوردُ مَجدي واغتباطي وغِبطتي	«وأقصى مُرادي واختياري وخِيرتي»
«فمن شاء فليغضبْ سِواكَ ولا أذى»	إذا كانَ في مَغنى رِضاكَ مَظلّتي
ولا بَرِحتْ غضبى عليَّ زعانِفٌ	«إذا رَضِيتْ عني كِرامُ عشيرتي[3]»

(١) وُجِدَ الإنسان وفي قلبهِ شوقٌ الى السَعادة لا تخمدُ جذاه ومهما سعى في الدُنيا وراء نيل ما يظنّهُ غِبطة من مالٍ أو جاه أو مَلذّةٍ أو عِلمٍ أو فضيلةٍ تَراه قلِقًا مضطرِبًا لا يقرُّ بهِ قرار ولا تهدأ لهُ أفكار بل ترى قلبهُ فارِغًا متلهفًا وكلّما أرادَ مَلأَهُ زادَ عطشًا وافتقارًا الى ما يشفي غُلّتَه ويطفئُ لوعتَه وقد أفادَنا السبب في ذلك العلاّمة بَسكال فقال ما مؤدّاه : «خُلِقَ المرء لِيَسعَدَ بموجودٍ ثابت غيرِ متناهٍ فلا يكتفي إلاّ بهِ وما ذلك الموجود إلاّ الله مُبدِعُه وهو وحدَهُ خيرهُ الحقيقيّ وعليه فيُحاول بلا طائل إنعامَ قلبهِ من الكائنات التي حولَه»

(٢) إشارةٌ من طَرْفٍ خفيّ الى اسم كتابٍ مُبتكَر هو آخرِ مُصنَّفاتي يُدعى «السلوى» وضعتُ لهُ «رؤوس أقلام» بين «مُسوداتي» سوف أنشرهُ وأنا شيخٌ هِمٌّ فانٍ إذا أنسأَ الله في الأجل وذلك تقديرُ الحكيم القديرِ الأجلّ وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ولله درُّ عديّ بن زيد القائل :

ليسَ شيءٌ على المَنونِ بباقِ غيرَ وجهِ المُسبَّحِ الخلاّقِ

(٣) ضمَّنَ الناظم صدر هذا البيت المشهور :

إذا رَضِيتْ عني كِرامُ عشيرتي فلا زالَ غضبانًا عليَّ لِئامُها

ونورُ اعتقادي آضَ يُرشِدُ خُطْتي	«وكيفَ وباسمِ الحقِّ ظلَّ تحققي»
«تكونُ أراجيفُ الضلالِ مُخيفتي»	وصرحُ تعاليمي غدا إسُّهُ الصفا[1]

وأنا في التشطير قلبتهُ وجعلتُ «الإيداعَ استعانةً» ببعض تصرُّف يقتضيه «نحو سيبويه» كما ترى

(١) «لمّا جاء يسوع الى نواحي قيصريّةِ فيلبُّس سأل تلاميذهُ قائلاً: مَن تقول الناس إنَّ ابنَ البشر هُو فقالوا: قومٌ يقولون إنَّهُ يوحنّا المعمدان وآخرون إنه إيليّا وآخرون إنَّه إرميا أو واحدٌ من الأنبياء قال لهم يسوع: وأنتم مَنْ تقولون إنّي هُو أجاب سِمعان بطرُس قائلاً: أنتَ المسيحُ ابنُ الله الحيّ فأجاب يسوع وقال لهُ: طوبى لكَ يا سِمعانُ بن يُونا فإنه ليسَ لحمٌ ولا دمٌ كشفَ لكَ هذا لكن أبي الذي في السماوات وأنا أقولُ لك: أنتَ الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها وسأعطيك مفاتيحَ ملكوتِ السماوات فكلُّ ما ربطتَهُ على الأرض يكونُ مربوطًا في السماوات وكلُّ ما حللتَهُ على الأرض يكونُ محلولاً في السماوات» متى ١٦ ولقد عقدَ هذه الآي «صائغ الدُرَر» فقال وما أبدعَ قولَه:

هُوَ الراسخُ الأركانِ والثابتُ الأصلُ	أمانًا لبُنيانٍ غدا إسُّهُ الصفا
أمانةِ والإسُّ الذي ما لهُ ثَلُّ	فهذا الأساسُ الصلدُ بطرُسُ صخرةُ آلـ
قويٌّ فما يقوي وما دونهُ رملُ	فكلُّ بناءٍ إسُّهُ الصخرُ ثابتٌ
بإلهامِ رُوحِ اللهِ قرَّ بهِ العقلُ	أقرَّ بلاهوتِ المسيحِ مؤكِّدًا
بلِ الآبُ ما لا شكَّ فيهِ ولا زَلُّ	فما جسدٌ أوحى إليهِ ولا دمٌ
على الرُسْلِ مِقداماً تدين لهُ الرُسْلُ	لذاكَ أولاهُ المقاليدَ فاغتدى
الى مُطلَقِ السلطانِ يعنو لهُ الكلُّ	أمينُ المفاتيحِ التي جاء رمزُها

وهاءنذا أُولي كتابي كرامةً بإخضاعه طوعاً لحُكم الكنيسة[١]
فما نبذتهُ الأمُّ صاحِ فإنني آلـ بُنيَّ تراني عنهُ أقضي برجعةِ
فأرفضهُ رفضاً صريحاً مؤبَّداً يُحرّرُ من رِقِّ الضلالِ عقيدتي
ويجعلني ابناً صادقَ البرِّ والوفا بعقلٍ وإيمانٍ ووحيٍ شريعةِ[٢]

---

(١) قلتُ في إحدى حواشي مقدَّمة النجرى ق ١ ف ٢ ص ٤٥ ما نصُّه : إذا وُجِدَ في كتابي ما تُشَمُّ منهُ رائحةُ الضلال فإنّي أرفضهُ رفضاً ولا أرى الدِفاعُ عنهُ فرضاً بل لا أحيدُ قيدَ شعرة عن تعليم الكنيسة الرومانية أُمِّ الكنائس كلِّها نابذاً وأيَّ نبذ لمعرَّة مُنشاً ني أو غوايتها كُثرها أو قلَّها ورحِمَ اللهُ شاعرَ القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجي العالم العربيَّ الحميد الأثر الذي فرائدُ قصائدهِ هي قلائدُ الشِعر بل تُحصى الحصى قبل أن تُحصى في دَواوينهِ الأبياتُ الباقيات على وجه الدهر إذ قال وقولهُ من الحقائق الكُبرَ التي نطقَتْ بها العرَب في النظم والنثر :

مَنْ قالَ لا أغلطُ في أمرٍ جرى فإنّها أوّلُ غلطةٍ تُرى

وأزيدُ على ذلك فأُنشِد :

مَنْ ذا الذي ما ساء قطْ ومَنْ لهُ الحُسنى فقطْ

وأختِم بقول أُمَيَّة بن أبي الصلت :

إنْ تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّاً وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألمّا

(٢) ناجى ربَّه الفيلسوفُ الفرنسويّ ملبرنش فقال ومقالهُ لسانُ حالي وكأنّه رمى بهِ عن قوسي : «لا تخذُلني يا يسوعُ مخلّصي وليقُدْ نورُكَ خطواتي وليسُدْ على خطراتي وإلّا فلأنْ أبقى في ليل الجهل ودُجى السذاجة مُنقاداً

وحَسْبِيَ حمدُ اللهِ عَودًا على ٱبتِدا أُعطِّرُ «نجوى النفس[1]» منهُ بنشْرةِ
وأسألهُ أجراً على نُصحِ خِدمتي وآمِلُ منهُ نيلَ خيرِ مَثوبةِ[2]

لكلماتِك وطائعًا لأمّي الكنيسة عروسِك المحبوبة خيرٌ لي وأبقى من أن أتمتّع بضياء عِلمٍ يبهرُ صاحبهُ وينفخهُ الى حدٍّ يفقِدُ معهُ الرَزانة والمحبَّة والتَواضُع»

(١) اعلَمْ يا رعاكَ الله أنّي دعوتُ كتابي «النجوى» إذ أُناجي فيهِ ربّي ونفسي المُسترشِدة ولا يخفى ما في مُحادثة الله والنفس من الطُلاوة التي تُمتِعُ المُطالِع وتُوليه لذّةً وٱنشراحا وغِبطةً وٱرتياحا ومَنْ أنعم النظر في مُناجاة القِدّيسَين أوغسطينوس وأنسِلموس وكتاب زَجْرِ النفس وباب بَرْزَوَيه من كَليلة ودِمنة تحقّقَ صِدقَ كلامي وسلّم بصِحّةِ قولي وفي الفصول التي نشرتُها من هذا الكتاب في مجلة الورقاء ما بهِ غِنًى عن الإسهاب والسَلام

(٢) كما قال الأخطل الشاعر النَصرانيّ المشهور :

جزاءَ يُوسُفَ إحسانًا ومغفِرةً أو مِثلَ ما نالَ هرونٌ وداودُ
أو مِثلَ ما نالَ نُوحٌ في سَفينتهِ إذِ ٱستجابَ لنُوحٍ وهوَ منجودُ
أعطاهُ من غِبطةِ الدُنيا وأسكنَهُ في جنّةٍ نِعمةٌ فيها وتخليدُ

ذلكَ ممّا حداني على أن أُسمّي «الفُلكَ النُوحيّة» مُلحمَتي المعروفة «بالمقصورة الرُوحيّة في السيرة الرُوحيّة» عسى أن يتسنّى لي وللقُرّاء الكرام الخلاصُ من أباطيل الدُنيا الغرور وتحصُل لي ولهم النجاة من طُوفان هذا العالم المُتلاطِم الأمواج بالكوارث والشرور بشفاعة سيّدة النجاة والله خيرٌ حافظًا وما لي سوى أن أُعيد في الختام خاتمةَ «الطِراز المُعلَم في مديح مريم» أمِّ الأنام :

ولِذا بُؤتُ بتقصيري أقولُ يا إلهي كُنْ مُعيني والبَتولْ

وذي غبطةُ الدارَينِ فالنجحُ[١] إنْ بدتْ　　وإلاَّ[٢] فلي ربّي رجائي وبُغيتي

في وُعوثٍ وحزونٍ وسهولْ　　وآدفعنْ عني دواعي النِقمِ
في آبتِدا العمرِ وفي المُختتَمِ

(١) لقد أشرتُ الى هذا النجح في قصيدة «النزوع الى الوطن» فقلتُ :

أحنُّ الى قومي وأصبو الى آلي　　وأنزِعُ مشتاقاً الى وَطني العالي
هُنالكَ مَجلى المجدِ مَنبِتُ شُعبتي　　ومفخَرُ أسلافي ومسحَبُ أذيالي
هُنالكَ دَرْجي وآرتباعي ونُزهتي　　ومَطمَحُ أنظاري ومسرَحُ آمالي
هُنالكَ بزّي في معاهدِ نشأتي　　ومَظهَرُ عِرفاني وعزّي وإقبالي
هُنالكَ إنشائي مدارسَ فخمةً　　غدتْ بترقّي النشْءِ مضربَ أمثالِ
هُنالكَ كُتْبٌ قد بذلتُ نفائسي　　شِراءً لها حتّى أُصِبتُ بإقلالِ
هُنالكَ وعظي في منابرِ بِيعةٍ　　لقد رصّعتُها بالجواهرِ أقوالي
هُنالكَ بذلُ النفسِ في سُبُلِ الهُدى　　وغِبطةُ أحوالي وبَسطةُ أعمالي
هُنالكَ تأسيسي محافلَ رحمةٍ　　ونَشْري صَحيفاتٍ لتثقيفِ جُهّالِ
هُنالكَ آنتخابي للحواضرِ أسقفاً　　ثلاثاً ولمْ أقبلْ لتخفيفِ أثقالي

(٢) قال أبو العتاهِية :

أقسِمُ باللهِ وآياتهِ　　شهادةً باطنةً ظاهرهْ
ماشرفُ الدنيا بشيءٍ إذا　　لم يَتْبعهُ شرفُ الآخرهْ

وقال أيضاً :

وإنَّ آمرءاً لم يجعلِ البرَّ كنزَهُ　　وإنْ كانتِ الدُنيا لهُ لَعديمُ

فقيه أرى خيري[١] وفخري ونُصْرتي ‏ وسَعْدي ومَجْدي[٢] مُدَّةَ الأبديةِ

---

(١) إنَّ الملائكة والقدّيسين في السماء لا يُشاركون الله في سعادته فقط بل في كماله أيضاً والى ذلك ألمعَ القدّيس يوحنا حيثُ قال: « أيُّها الأحِبّاء نحنُ الآنَ أبناء الله ولم يتبيّنْ بعدُ ماذا سنكون غيرَ أنّا نعلمُ أنّه إذا ظهر نكونُ أمثالَهُ لأنّا سنُعايِنه كما هو » ١يوحنا ٣ : ٢ وبذلك صرَّح هامة الرُسُل حيثُ قال: « وُهِبتْ لنا المَواعِد العظيمة الثَمينة لكي تَصيروا بها شُركاء في الطَبيعة الإلهيَّة » ٢ بطرس ١ : ٤ ولقد تنبَّهَ لهذا المعنى الشاعر النَصرانيّ أميّة ابن أبي الصلت فقال في سُعَداء الآخرة:

لهمْ ما يَشتَهونَ وما تمنّوا ‏ منَ الأفراحِ فيها والكمالِ

(٢) قال بولس الرَسول: « إنَّ نجماً ليمتازُ عن نجمٍ في المجد » ١ كور ١٥ : ٤١ فامتيازُ البَشَر عن بعضهم في ذلك المجد يُنظَر فيه الى دَرَجة استحقاقهم كما قال السيّد فرحات وقولهُ رُوحُ جِنان ورَوْحُ جِنان:

يحوزُ كلٌّ منَ الأبرارِ أجمعِهِمْ ‏ سَعادةً نالَها في قَدْرِ ما « نَصِبا »

مسك الختام

ألوكة مهموم الى أُمّ النجوم

ألِكْني يا أثيرُ الى النُجومِ ‏ ألوكةَ باحثٍ حِلْفِ الهُمومِ
ولو حمَّلتُها نَسَمَ الرَوابي ‏ لَما وَصَلَتْ الى تلكَ التُخومِ
فهلْ يَرقى النَسيمُ الى ذُراها ‏ ليُبلغَها الى الأَوْجِ المَرومِ
ولكنْ أنتَ موجودٌ لَطيفٌ ‏ بلا وَزْنٍ أرقُّ مِنَ النَسيمِ

ومُنتشِرٌ ضِياءً في فَضاءٍ أدقُّ مِنَ الهَباءةِ في الجُسومِ

* * *

فيا أمَّ العوالمِ هل مُصيبٌ تظنِّي من رأى الرأيَ السديمي
أما قالوهُ في الأجرامِ حقٌّ أرأيهُمُ صحيحٌ في الرُجومِ
بربِّكِ يا مجرَّةُ حدِّثينا عن الشهُبِ المُنيرةِ في الأديمِ
أمِنكِ وُلِدنَ دهرًا بعدَ دهرٍ وَلَدتِ واستِ وَيحكِ بالسؤومِ
أفيكِ منَ التحنُّنِ ما يُضاهي حَنانَ الأُمَّهاتِ على الفطيمِ
وهل أرضعتِهِنَّ لِبانَ حُبٍّ فكُنتِ لهُنَّ كالظئرِ الرؤومِ
أجِدُّكِ ليسَ فيكِ قِوًى ذكيٌّ يُزجّي البرقَ في الليلِ البهيمِ
يُراسِلُنا فيُنبِئُنا بسِرٍّ خفيٍّ عن نُهى الندسِ الحكيمِ

* * *

أجل أسرارُ هذا الكونِ كُثرٌ فكيفَ يحلُّها فِكرُ الفهيمِ
تضالُ دونَها الألبابُ حتّى يُساوى الغمرُ فيها بالعليمِ
كُراتٌ سابحاتٌ في أثيرٍ حُسامُ سَناهُ يفتكُ بالغمومِ
حكتْ أجرامُها والليلُ داجٍ مَصابيحًا بدَتْ بينَ الغيومِ
وزُهرةُ نورِها في الأُفقِ حاكتْ زُهُوَّ النَورِ في الرَوضِ الوَسيمِ
وليلٍ رُحتُ أُحييهِ طَويلٍ كظِلِّ الرُمحِ أو ليلِ السَليمِ
رَصدتُ بجُنحِهِ شِعرى الدراري وصُغتُ الشِعرَ كالدُرِّ النظيمِ
قرأتُ كتابَ هذا الكونِ حتّى أوفقهُ وتوراةُ الكليمِ
ففي السِفرَينِ سُطِّرَ صُنعُ ربّي فعادَ الكونُ عِندي كالرقيمِ

* * *

تُطاوِلُ هِمَّتي الفَلَكَ اعتِلاءً ولكنَّ الكواكِبَ مِن خُصومي

وما أنا أستعين على أذاها بإخواني الغطارفة القروم
وقد بغت العداة لي انتقاصاً وأين النقص من علمي وخيمي
ومن فعل يزين جبين عصري يدلُّ به على كرم الأروم
وفعل المرء يوم الفخر مجدٌ به يغنى عن المجد القديم
وللخفاش يؤذي النور طبعاً ويمسي الماء مُرّاً للسقيم
وقد يرضي الشذا الجعلان يوماً ولن يرضى اللئيم عن الكريم

*
* *

أرى الأضداد أنحس من نجوم تعدُّ لدى الورى مدعاة شوم
إذا زحل تراءت في هزيع وحلَّ البؤس بي بعد النعيم
تطيَّر وهي المكروب منها وقد أجفلتُ إجفال الظليم
سهدت وقد وهى سمط الثريا فثاب إليَّ إدراك الحليم
عقود النثرة انتثرت وشدّت من الجوزاء منطقة الرسوم
هوى العيوق يشبه في فرار نفار الرئم أو ظبي الصريم
وطار النسر منقضاً على قو س جبار الثوابت في السديم
وراح برمحه أحد السماكين بين الوخذ منه والرسيم
يُشارع راكباً نضواً بقفر يسارع للنجاة من السموم
على آثاره خوت الدراري تحيّر كل ذي علم حزيم
عوالم ليس يدري السر منها سوى الخلاق ذي الفضل العظيم
فأسأله المعونة في ختام وأضرع في الخطوب الى الرحيم

فهرس

